

قيام الدولة العثمانية

تأليف : محمد فؤاد كوپريلي
ترجمه وقدم له د. أحمد السعيد سليمان
تقديم : د. أحمد عزت عبد الكريم

دار الكاتب العربي
للطباعة والنشر

قيام الدولة العثمانية

تأليف

محمد فؤاد كوبريلي

ترجمه عن التركية وقدم له:

الدكتور أحمد السعيد سليمان

تقديم

د. أحمد عزت عبد الكريم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تقـــديم

بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

شهد الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى المتأخرة أحـــداثا خطيرة ، لعل من أخطرها قيام الدولة العثمانيـة فى الركن الشمالى الغربى من الأناضول . واذا كان قيام هذه الدولة قد جرى على نحو لا يختلف كثيرا عن قيام غيرها من الامارات والدول التركيـة فى آسيا الصغرى ، فان المستقبل العظيم الذى صارت اليه هـــذه الامارة العثمانية بهر أصحاب القصص وكتاب الحوليات فنسجوا حول تاريخها الأول ومؤسسيها الأول القصص والأساطير ، حتى اختلطت الأسطورة بالتاريخ ، وكان على المؤرخين المحدثين ـ أتراكا ومستشرقين ـ أن يستخلصوا الحقيقة التاريخية من بين ثنايا القصص ، وبذلك يعيدون بناء التاريخ العثمانى ـ وخاصة فى مراحـله الأولى ـ على حقيقته ، وليس هذا بالأمر اليسير .

وهذا الكتاب الذى يسرنى أن أقدمه اليوم فى ترجمته العربية لقراء العربية يمثل خلاصـــة جهد علمى ضخم قام به ـ فى هـــذا الموضوع ـ مؤرخ تركى معاصر هو الأستاذ فؤاد كوبريلى .

والأستاذ كوبريلي يعرفه أصحاب الدراسات التركية التاريخية والأدبية بمؤلفاته ومحاضراته وبحوثه المتعددة ، التي كان لها الفضل في اعادة كتابة التاريخ العثماني الوسيط والحديث .

ولا شك أن اثراء المكتبة العربية بهذا المؤلف الجليل عمل يستحق كل تقدير ، فما أحوجنا الى مزيد من الدراسات الجادة في التاريخ العثماني الذي ارتبط دهرا طويلا بتاريخ الأمة العربية ، حين عاشت الأمتان – العثمانية والعربية – أربعة قرون أو نحوها – في ظل حكم واحد . واذا لم تكن هذه المعيشة – في أكثر أيامها – سعيدة ، واذا كان الافتراق بينهما – في آخر المطاف – قد تم في عنف ، فلن يمنع هذا كله دون أن تزداد كل من الأمتين معرفة علمية جادة بالأمة الأخرى ، والسبيل الى تلك المعرفة الجادة أن تنقل المؤلفات العلمية التي تتناول تاريخ كل أمة الى لغة الأمة الأخرى .

ومن هنا تأتي الأهمية الخاصة التي نعلقها على هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم الى قراء العربية ، ومن هنا جاء احتفالي بهذا الكتاب حين دفعه الى الزميل الكريم الأستاذ الدكتور أحمد السعيد أستاذ الدراسات التركية بجامعة القاهرة ، لأقدمه الى القراء وهو يعلم شدة اهتمامي بنقل الدراسات الحديثة الجادة في التاريخ العثماني الى اللغة العربية .

وقد بدأ الدكتور السعيد جهده المشكور في هذه الناحية بترجمة كتاب المستشرق بارتولد في تاريخ الترك في آسيا الوسطى وهو – على

توالى السنين – لايزال حجة فيموضوعه • والصلة بين كتابالأمس وكتاب اليوم واضحة ، فالكتاب الأول يتتبع تاريخ الترك فى مواطنهم الأصلية ، والكتاب الذى نقدمه اليوم يتقصى هجرة بطن من احدى القبائل التركية الى هذا الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، ويبحث الظروف التى أحاطت بنشأة هذه الامارة – امارة عثمان وبنيه والعوامل التى دعمت بناءهم الأول •

وللكتاب – على ايجازه – أهمية خاصة ، فقد ناقش فيه مؤلفه فؤادكوبريلى الآراء والأقوال التى قيلت فى قيام الدولة العثمانيةوأدلى فى هذا الموضوع الغامض برأيه الخاص ، رابطا بين نشأة الدولة العثمانية وظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والروحية فى الأناضول ابان القرنين الثالث عشر والرابع عشر خاصة ، فجاءالكتاب دراسة علمية أصيلة ورصينة للتاريخ السياسى والاجتماعى للأناضول فى العصور الوسطى المتأخرة،وما أشد حاجة مكتبتنا العربية الى مزيد من هذه الدراسات العلمية الأصيلة •

أما أمر الترجمة فأتركه للمتخصصين فى الدراسات التركية ، على أن ما نعلمه من كفاية الصديق الدكتور أحمد السعيد واخلاصه للعلم وحرصه على التجويد فى عمله ، كفيل بأن يوفر لنا أسباب الثقة فى اخراج هذا الكتاب فى ثوبه العربى •

واذاكان الدكتور السعيد قد تتبع تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

ثم تاريخهم فى آســيا الصغرى فى هذين الكتابين اللذين نقلهما الى العربية ــ فالعهد نأخذه عليه أن يتتبع تاريخهم من بعـد ذلك ، حين انطلقوا يشيدون دولة من أعظم الدول «العامة» ، التى شهدها العصر الحديث ، ومن ثم اتصلت بينهم وبيننا ــ نحن العــرب ــ أســباب المعيشة المشتركة والحكم الواحد • وبذلك يسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية ويسدى يدا الى المشتغلين والمهتمين بالتاريخ العثمانى العربى الحديث •

وفقه الله وأعانه •

دكتور : أحمد عزت عبد الكريم
وكيل جامعة عين شمس

مقدمة

(١)

تترك الأناضول

(أ) الأناضول بين العرب والبيزنطيين :

كانت فتوح الاسكندر المقدونى قد وسعت نطاق الحضارة الهلينستية حتى صار نهر السند حدها الشرقى .

ولكن قيام الدولة الاسكانية (٢٥٠ ق.م - ٢٢٤م) وانتصارها على السلوقيين ضيق هذا النطاق ورد حده غربا الى الفرات ، ولم يبق فى حوزة الهلينستية من منطقه الشرق الأوسط الا آسيا الصغرى وسوريا ومصر ... ثم جاء الاسلام ففتح هذه البلاد جميعا الا آسيا الصغرى ، وتراجعت الحضارة الهلينستية قسراً الى ما وراء جبال طوروس التى أصبحت - الى كونها حدا طبيعيا - حدا دينياوحضاريا بين (الشرق) و (الغرب)[١] .

---

(١) انظر مقدمة Grousset لكتابه L'Empire du Levant

وكان من الطبيعي وقد لاذت الهلينستية بمعقلها الحصين فى الأناضول أن تستبسل فى الدفاع وأن تشتد مقاومة الروم للعرب •

ولكن العرب استولوا فى صدر الاسلام على الجزء الشرقى من الأناضول ابتداء من نهر الفرات •

ثم واصل الأمويون الفتح بعد ذلك فاستولوا على أرمينية من ناحية وعلى قيليقيه وقوماجين Comagéne من ناحية أخرى ، وما لبثت هذه المناطق أن صارت أجزاء من الثغور الاسلامية [1] •

ولم يقنع الأمويون بهذه المناطق فنظموا الصوائف والشواتى لاكمال الاستيلاء على الأناضول ، ووصلوا فى بعض غزواتهم الى سواحل بحرى مرمرة وايجه وحاصروا استانبول مرتين •

واستمرت الغزوات فى العصر العباسى ، وزاد المرابطون على الحدود ، وظهرت من طول الاقامة والتمرس بالقتال طبقة من (أهل الخبرة [2] كانوا يستشارون قبل المغارك مع البيزنطيين فى اختيار المواقع ومشاكل الاستراتيجية •

ثم أخذ الخلفاء العباسيون يوطنون أقساما من جيش خراسان فى المناطق الأناضولية الخاضعة لهم ، وكان الخليفة المهدى يستقدم الأتراك من فرغانة واسفيجاب وبلخ وخوارزم وهراة وسمرقند

---

(١) مكرمين خليل : أنا طولينك فتحى ص ٤

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥ (طبع أوروبا)

ويسكنهم الثغور وبخاصة طرسوس والمصيصة وعين زربة وآذنة ومرعش وملطية وآمد وخلاط وملازكرد وفاليقلا وما زالت كتلة الترك تتكاثف بعد عهد المهدى وبخاصة فى عهدى المأمون والمعتصم.

فلما صار جيش الأتراك هو جيش الخلافة الرئيسى فى عهد المعتصم اختير قادة الحملات على الأناضول من بين رؤساء الترك .

حتى اذا ما حل الجيش العربى بعد ذلك فى عهد المتوكل ، ولم يبق للخلافة الا جيش الترك ، استبد هؤلاء الترك بكل أمور الخلافة ، وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين ، وكان من الطبيعى أن يدخل أتراك الثغور تحت امرتهم .

وكانت مهمة عساكر الحدود هؤلاء هى الدفاع عن بلاد الاسلام والاستيلاء على الأناضول أو اضعافه على الأقل، وقد استمرت غاراتهم على الأناضول قرنين من الزمان كانوا فى أثنائهما خاضعين للخليفه العباسى ولكنهم خضعوا فى بعض الفترات خضوعا مباشرا للطولونيين فى مصر وفى بعض الفترات للحمدانيين فى الشام ، وقد كان النصر طوال حكم الأسرتين الايسورية (٧١٧م – ٨٢٠) والعمورية (٨٢٠ م – ٨٦٧) البيزنطيتين حليف المسلمين على الأكثر ، فلما انتقل الحكم الى الأسرة المقدونيه (٨٦٧ – ١٠٥٩) توالت الهزائم على المسلمين حتى خرجت الثغور جميعها من أيديهم، وبسط البيزنطيون نفوذهم على الدويلات الاسلامية المشرفة على

حدودهم ، فجبوا الجزية من بنى مروان وبنى مرداس وبنى شداد، وأمراء تفليس .

(ب) توطن الترك فى الأناضول :

ولكن ظهور السلاجقة فيما وراء النهر وانضواءهم تحت راية الخلافة العباسية قلب ميزان القوى فى مناطق الثغور لصالح المسلمين، وذلك أن السلاجقة استطاعوا بسلسلة طويلة من الغارات قاموا بها بخاصة فى حكم طوغرول بك (١٠٤٣ - ١٠٦٣) أن يخربوا معاقل الجيوش البيزنطية ، ومعظم المدن ذات المواقع الاستراتيجية الهامة فى الأناضول فخربوا أرضروم وارزنجان وبايبورت ونيكسار وقيصرية وعمورية وقونية ، حتى اذا كانت سنة **١٠٧١** وانكسرت الجيوش البيزنطية على يد ألب ارسلان فى ملاذكرد ، انفتح الباب الشرقى للأناضول أمام العشائر التركمانية ، وسرعان ما توغلت هذه العشائر غربا حتى أشرفت على منطقة المضايق من ناحية وعلى بحر ايجة من ناحية أخرى (١) ، ثم صارت نواة توطنت من حولها عشائر أخرى وافدة من الشرق .

ومع أن أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥) قد استطاعت فى بداية القرن الثانى عشر أن تزحزح - بمساعدة الصليبيين - بعض التكتلات

---

(١) مكرمين خليل : أنا طولينك فتحى ص ١٦٦

التركية المتوطنة فى شمال الأناضول وغربه الا أن الامدادات العسكرية المرسلة من خراسان ، والهجرات التى نتجت عن الزحف المغولى بعد ذلك كانت تضخم الكتلة التركية فى شرق الأناضول ووسطه ، وما لبث الأتراك ـ كنتيجة طبيعية لزيادتهم العددية ـ أن عادوا فغمروا الأماكن التى طردوا منها على مشارف المضايق وبحر ايجة [1] .

وكان الترك الوافدون على الأناضول ينتمون الى عناصر تركية مختلفة ، فمنهم القارلوق ومنهم القبجاق والقالاج ، ولكن الجمهرة الغالبة كانت من الأتراك الغز أى التركمان . وقد التقوا جميعا فى الأناضول باخوان لهم من الغز والبجنك نصارى ومانويين وشامانيين كانوا فى الأصل جنودا مرتزقة فى الجيوش البيزنطية ثم رأت بيزنطة لأغراض دفاعية أن تنقلهم من مواطنهم فى البلقان الى الأناضول .

وهكذا صار الأناضول مهجرا تقصده العناصر التركية من وسطى آسيا وأوربا .

وقبل نهاية القرن الثانى عشر صارت كتلة الترك بالأناضول أكثف منها فى شمال سورية وفى العراق وفى أذربيجان وايران .

وفى أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر دخل فى

---

(١) مكرمين خليل : أناطولينك فتحى ص ١٦٦

الأناضـــول عنصر جديد هو العنصر المغـــولى ، اذ لم يكد المغول ينتصرون على السلاجقة فى معركة الجبل الأقرع (كوسه طاغ) سنة ١٢٤٣ ، حتى أخذوا يوطنون قبائلهم وجيوشهم فى الأناضول •

وورد على الأناضول فى الوقت نفسه عنصر ثالث هو العنصر الفارسى فقد لجأت الى الأناضول طوائف من الفرس هربا من ويلات المغول •

ودخلت الاناضول فى ركاب المغول طوائف أخرى من الفرس كانت تعمل فى خدمه الغزاة ، ويقرر (زكى وليدى) ان الاتراك ــ المهاجرين الى الأناضول كانوا هم أنفسهم من حيث الدم ايرانيين الى حد ما ، ويستدل على ذلك بما ورد فى دائرة المعارف الصينيـة Tu—Yan المدونة فى القرن الثامن الميلادى فقد سمت هذه الدائرة منطقة صوغداق باسم To — Ko — Mong أى بلاد التركمان وقد كان الاصطلاح الصينى (صوده) يطلق أيضا على شمال بلاد ما وراء النهر وعلى حوض سيرداريا مما يدل على أن الترك كانوا متصلين بالفرس ويسكنون فى مواطنهم من زمن بعيد •

ومن الدلائل على كثافة الفـــرس فى الأناضول أن المصــادر التاريخية التى تتحدث عن الفتن الداخلية به تذكر عبارة « عساكر الترك والتاجيك » وهم العساكر الذين كان يعتمد عليهم السلاطين فى قمع الفتن التى يقوم بها بدو الترك ، والمراد بعبارة التاجيك فى هذه العبارة هم الفرس •

ويذكر جلال الدين الرومى الأمم التى تعيش فى بلده فيقول انهم التات والروم والترك ، وكلمه «تات» فى هذا المقام بمعنى كلمة الفرس أيضا ، وكان والى الأناضول العام يسمى « تورك وتاجيكك حاكمى » أى حاكم الترك والتاجيك وكان يطلق على العساكر المقيمة على الحدود عبارة « لشكرتورك وتاجيك » أى جيش الترك والتاجيك •

ومع أن الهجرات التركية الخارجة من الأناضول كانت ـ ابتداء من القرن الرابع عشر ـ أكثر عددا من الهجرات الوافدة عليه بحيث نقص فعلا عدد السكان ، الا أن العنصر التركى ظل محتفظا بكثافته بحيث استطاع أن يتمثل العناصر البيزنطية القديمة•

وفى الوقت نفسه كانت هذه الهجرات الخارجة تكثف العنصر التركى فى ايران من ناحية وفى الروملى من ناحية أخرى •

وظلت الهجرات هكذا داخلة وخارجة فى القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ،ثم بدأت تفد منذنهاية القرن التامن عشر بكثافة أقل وكان مصدرها هذه المرة هو القرم وقافقاسيا ، فقد كانت العناصر البدوية والحضرية تلجأ الىتركيا فرارا من تنكيل روسيا القيصرية ، وفى القرن التاسع عشر حين قامت دولة اليونان وفد على الأناضول كثير من أتراك المورة وجزر بحر ايجه •

(٢)

الحضارة الاسلامية فى الأناضول بعد تتركه

(أ) التأثير البيزنطى :

وكان يقابل هذا التكاثر المستمر فى الجانب الاسلامى نقص مستمر فى الجانب المسيحى فقد كانت العناصر المسيحية آخذة ـ حتى قبل توطن الترك ـ فى ترك قراها بجنوب الأناضول ووسطه وفى سكنى المدن واكناف القلاع لتكون بمنأى عن الغارات .

وكان من نتائج تركهم الديار على هـذا النحو أن اضمحلت الحياة القروية فى الجنوب والوسط حتى اضطرت الجيوش البيزنطية التى كانت تعتمد أثناء تحركاتها الداخلية على قرى هذه المنطقة فى الأكل والمبيت أن تتخذ من التدابير الاستراتيجية ما يغنيها عن هذه القرى [1] .

وفى عهد سلاجقة الروم اضطر السلاطين الى تهجير فلول المسيحيين الى أماكن تكتلهم فى المناطق الساحلية وخاصة بعد

---

(١) زكى وليدى : كيريش ص ١٩٩

اساءاتهم الى المسلمين ابان الحروب الصليبيه والفتن الدينيه الداخلية وهكذا زاد الروم اضمحلالا فى وسط الأناضول ثم لبثوا أن خلت منهم المدن أيضا وصاروا منذ القرن الثالث عشر ـ (عناصر تذكارية) فى جنوب الأناضول [1] •

ولم يكن فى الممكن والعناصر المسيحية على هذا الاضمحلال أن يكون لها دور حضارى يؤثر فى التفكير الاسلامى بالأناضول •

ولكن بعض العادات والتقاليد وأنماط المعيشة المنزلية انتقلت مع هذا من البيزنطيين الى بعض الفئات التركية لأن بعض أثرياء الترك كانوا يتزوجون الروميات ويلحقونهن بالحريم •

ولا شك فى أن حياة الترف الماجن التى زاولها بعض السلاطين كانت منقولة عن البيزنطيين ولقد كانت هذه الحياة من المجون بحيث أفتى القاضى الترمذى بأن علاء الدين كيقباد لا يصلح بعد التجائه الى البيزنطيين ، وبعد ارتكابه أنواع المحرمات أن يكون سلطانا [2]، وكانت من المجون بحيث تساءل الناس فى الأناضول هل عاد السلاجقة الى الوثنية والمجوسية ، وحتى لقد طلب نور الدين زنكى حاكم حلب الى السلطان قليج أرسلان الثانى (بطريق سفير السلطان) أن يجدد ايمانه ، ويرى زكى وليدى ـ وهو من مؤرخى الترك المتحمسين ـ أن تأثير البيزنطيين لم يتجاوز فى بعض الحالات

---

(١) نفس المصدر

(٢) فؤاد كوبريلى : ايلك متصوفلر ص ٢١٤

الفردية نقل رذيلتي البغاء وادارة المواخير [1] استنبط ذلك من قول ابن بطوطة فى حديثه عن مدينة دكيزلى « ووصلنا الى مدينة لاذق وتسمى أيضا (دون غزلة) بلد الخنازير وأهل هذه المدينه لايغيرون المنكر بل كذلك أهل هـذا الاقليم كله وهم يشترون الجـوارى الروميات الحسان ويتركونهن للفسـاد وكل واحدة عليهـا وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنـاك ان الجـوارى يدخلن الحمـام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لى أن القاضى بها له جوار على هذه الصورة [2] .

وأثر البيزنطيون الى هذا ، فى العمـارة والفنون السلجوقيـة واليهم من غير شك يرجع مايرى فى مبانى السلاجقة من صور ادمية وما يرى على جدران قلاعهم من تماثيل وعلى بعض عملاتهم من صور مسكوكة وخاصة صورة سان جـورج وعلى سيوفهم وآرماتهم من صور الصقر والعقاب ذات الرأسين [3] .

ولكن البيزنطيين ـ فيما خـلا العادات والتقـاليد والعمارة والرسم ـ لم يؤثروا فى سلاجقة الروم من الناحيـة الفكرية تأثيرا ملموسا ، بل بدأوا يتأثرون هم أنفسهم بالثقافة الاسلامية ويستردون ثقافتهم التى ترجمت من قبل الى السريانية والعربية .

---

(١) زكي وليدى : نفس المصدر ص ٢٠١ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٧٢ طبع باريس ..
(٣) ايلك متصوفلر ص ٢١١

وبدأ التأثير العربى الاسلامى يظهر فى القرن الحادى عشر ثم تجلى واضحا بعد ذلك فى عهد أسرة باليولوغ (١٢٥٨-١٤٥٣).

وقد كان أخذ البيزنطيين عن العرب بداية نهضة بيزنطية فى الطب والفلك والرياضة ، ففى القرن الحادى عشر ترجم Constant Regions كتابا فى الطب لأبى جعفر أحمد بن ابراهيم ، وترجم George Choniate رسالة فى قيمة الاغذية وأخرى فى الأدوية الواردة من بلاد الفرس . ثم ترجم البيزنطيون فى أوائل القرن الرابع عشر ١٣٢٢ كتاب شمس الدين البخارى فى الفلك وقد زار Gregoire Chioniades ايران فى أواخر ذلك القرن ودرس الفلك وحمل الى طرابزون كتبا فلكية من ايران ، ولما عين أسقفا فى تبريز صحب معه جماعة نبغ من بينهم Georges Cyrysokokkes صاحب المؤلفات الجغرافية والفلكية التى كان آخرها وأشهرها :

Interprétation de la composition des Persans

وأما الكتب الشعبية فقد ترجم منها كتاب كليلة ودمنة سنة ١٠٨٠ بقلم موظف بيزنطى كبير يقال له Symon Seth [1]

ولم يثبت فى مقابل هذا أن كتابا واحدا ترجم طوال العصر السلجوقى من الرومية الى العربية أو الفارسيه .

---

(١) D.A. Zakythinos : Byzance et les Arabes dans leur Rapports Intellectuelle

هذا عن الروم ..

فأما الأرمن في الأناضول فما كانوا ـ من باب أولى ـ ليستطيعوا التأثير في الأتراك المسلمين ، وعلى الرغم من أنهم استطاعوا بمساعدة الصليبيين أن يقيموا لأنفسهم مملكة في قيليقية ورغم أن ليون الثاني وهو من أسرة Rupen استطاع لفترة ما أن يلم شتات الأرمن المقمين بشرق الأناضول ، طمعا في تكوين مملكة أرمينية موحدة ، على الرغم من ذلك ظل الأرمن أضعف من أن يكون لهم أي تأثير حضاري في الترك بل تأثروا هم أنفسهم بالسلاجقة ، فكان ملوكهم يتلقبون بالألقاب السلجوقية مثل أمير وحاجب وسباهسالار [1] .

(ب) قوة التأثير الفارسي :

وهكذا يتضح ان المدنية الاسلامية بعنصريها العربي والفارسي غلبت على الأناضـــول بعد تتركه وقد كان العنصر العربي غالبا في جنوب الأناضول وفي جنوبه الشرقي ابتداء من القرن الحادي عشر الى منتصف القرن الثالث عشر حتى ان الترك المتوطنين في هاتين المنطقتين كانوا آخذين في التعرب وكانت اللغة العربية هي لغة التدريس في المدارس وكانت في الوقت نفســـه اللغة الرسمية وظلت كذلك الى عهد الايلخانيين فقامت الفارسية مقامها على يد الصاحب فخر الدين علي بن الحسين وزير هولاكو

---

(١) زكي وليدي : كيريش ص ٢٠

ثم ساعد السلاطين السلاجقة على التمكين لهذه اللغة فى الاناضول لانهم كانوا هم أنفسهم يكتبون بها فقد كان ركن الدين سليمان بن قيلج أرسلان الأول وغيات الدين كيخسرو الأول وابنه كيكاوس الأول يقولون جميعا الشعر بالفارسية ، وبلغ من تأثرهم بالثقافة الفارسية انهم اتخذوا لأنفسهم هذين اللقبين : كيكاوس وكيخسرو من الميتولوجيا الفارسية [1] .

وما ان فرغ هؤلاء السلاطين من الحروب التى خاضوها ضد الصليبيين فى النصف الاخير من القرن الحادى عشر ، ثم ضد الصليبيين والبيزنطيين جميعا فى النصف الاول من القرن الثانى عشر حتى وجهوا عنايتهم للحياة الثقافية فأكرموا وفادة الشعراء ورجال الفكر مما أدى الى كثرة الانتاج بالفارسية ، ففى عهد قيلبج ارسلان الثانى وفد على الاناضول شهاب الدين السهروردى (١١٩١) وكتب بالفارسية كتابه « برتونامه » وأهداه لوالى نيكسار يومذاك الأمير بركياروق بن قيلبج ارسلان ، ولقد كان بركياروق وأخوه ركن الدين من مقدمى تلامذة السهروردى .. ونبغ فى العصر السلجوقى ممن كتبوا بالفارسية فخر الدين العراقى صاحب « اللمعات » وقطب الدين الشيرازى الطبيب الفلكى ونجم الدين الداية صاحب « مرصاد العباد » ولكن أشهر أدباء تلك الفترة هو من غير شك جلال الدين

---

(١) كوبريلى : ايلك متصوفلر ص ٢١٥

الرومى صاحب المثنوى، ولقد كان جلال الدين يكلم مريديه بالفارسيه فيفهمون ، ويقول غزلياته بالفارسية فيتواجدون .

وطغت الفارسية على التركية حتى انصرف الأدباء عن الكتابة بالتركية زمانا وحتى قال رجل كسلطان ولد ابن جلال الدين الرومى انه يجهل التركية .

تركجه بلسيدم بن ايديدم سزا

سرلرى كيم تنكريدن دكدى بزا [1]

وكان عاشق باشــا فى النصف الاول من القرن الرابع عشر يشكو انصراف الأدباء عن اللغة التركية واحتقارهم اياها بقوله : لم يكن أحد يميل الى اللغة التركية ولا أحد يميـــل الى الترك ، أما الترك فلم يكونوا واقفين على تلك اللغـات التى لا يتوصـل اليهـا بسهولة [2] .

وقد ظل التأثير الفارسى واضحا فى الادب التركى منــذ ذلك الزمان الى أن قضى عليه الكماليون من عهد قريب .

---

(١) ديوا سلطان ولد (لو كنت أعرف ص ٨٤ والمعنى التركية لأطلعتك على الأسرار التى وصلت الى من الله)

(٢) انظر : كوبريلى ملى أدبيات جريانتك ايلك مبشرلرى ص ١١

(٣)

الدولة العثمانية بين الدول التركية الأناضولية

(١) معالم التاريخ العثمانى :

وقد اختلفت على هذا الاناضول الاسلامى ، وفى أماكن مختلفة منه دول تركية كثيرة .

فبعد سنة **١٠٧١** قامت فى شرق الاناضول دولة الدانشمنديين [١] ودولة منكوجك [٢] ودولة بنى سلدق [٣] وكانت كلهـــا تجاهـد البيزنطيين تحت حماية السلاجقة .

ثم قامت دولة سلاجقة الروم فاندثرت هذه الدول جميعا .

ولقد ظهرت فى فترة اضمحلال دولة السلاجقة ، وبعد تمام

---

(١) كان لهذه الدولة شعبتان احداهما فى سيواس ٤٦٤ ـ ٥٧٠ (١٠٧١ ـ ١١٧٤) والأخرى فى ملطية ٥٣٧ ـ ٥٧٣ (١١٤٢ ـ ١١٧٧)

(٢) قامت هذه الدولة فى ارزنجان وكما خ وديوريكى ٤٦٤ ـ ٦٥٠ (١٠٧١ ـ ١٢٥٢)

(٣) قامت فى ارضروم ٤٦٤ ـ ٥٩٨ (١٠٧١ ـ ١٢٠١)

انهيارها دول تركية جديدة ، فى غرب الأناضول وجنوبه وكانت عدة المشهور من هذه الدول ست عشرة دولة من بينها دولة العثمانيين •

ولكن هذه الدولة العثمانية قدر لها من بين الدول التركية ان تصبح امبراطورية مترامية الأطراف وأن تحكم شعوبا ومللا ونحلا غير متجانسة ، وأن تكون أطول دول الترك بقاء اذ عمرت ٦٢٣ عاما (١٢٩٩ ـ ١٩٢٢) ، واختلف على عرشها أربعون حاكما الثلاثة الأول منهم بكوات والباقى سلاطين ، ووليها من أيام السلطان سليم الى انقراضها اثنان وثلاثون سلطانا خليفة جمعوا فى أيديهم السلطتين الزمنية والروحية ودعى لهم على منابر العالم الاسلامى السنى طوال ٤٠٦ سنة •

وبلغت الامبراطورية أوجها فى حكم سليمان القانونى فاستولت على بلاد المجر وحكمتها أكثر من قرن ونصف قرن ، ودكت أسوار فينا •

ولقد ورثت هذه الدولة حضارة السلاجقة وحضارة الدول التركية الاناضولية ، وأخذت نظم الادارة عن دولة المماليك وعن الايلخانيين وتأثرت بالبيزنطيين والصقالبة ونبغ من العثمانيين فى عهد سليمان القانونى طائفة من مشاهير علماء الاسلام أشهرهم شيخ الاسلام ابن كمال باشا صاحب المكانة المرموقة منذ أيام سليم الأول وأبو السعود أفندى صاحب التفسير •

وتؤيد دراسة الفنون التركية تأثر العثمانيين أيام محمد الفاتح بحركة الرينساس فى ايطاليا •

ولكن الدولة أخذت في الضعف منذ أيام القانوني نفسه فبدأت تعاني انتقاضات الانكشارية والصراع على العرش ، ودسائس الجواري ، ثم ظهور النزعات الاستقلالية ، ومقاومة المسيحيين في البلقان .

وكان الجمود والاستمساك بالنظم البالية من أكبر عوامل الانهيار ، فعلى حين أسقطت أوربا الاقطاع وأقامت الحكومات المركزية القوية ، وأخذت سفنها تجوب البحار حتى غيرت مسالك التجارة البحرية وحولت البحر الابيض تجاريا الى بحيرة داخلية ، في ذلك الوقت ازدادت الدولة العثمانية استمساكا بتقاليدها القديمة وبتكتيكها الحربي القديم فتوالت عليها الهزائم واضطرت الى أن توقع على معاهدتي قارلوفجة Carlowitz (١٦٩٩) ، ثم باصاروفجة Passarowitz (١٧١٧) وبدأت الدول البلقانية في الخروج من قبضتها .

ولقد حاول العثمانيون وقف الانهيار ، وتوالت الحركات الاصلاحية من أيام سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٨) ثم قامت حركة التنظيمات ١٨٣٩ ثم صدر فرمان الاصلاح (١٨٥٦) ولكن هذه الحركات باءت بالفشل .

(ب) النص المترجم :

وقد درس مؤرخو الترك هذه الحركات الإصلاحية ونشروا كثيرا من وثائقها وخص بعضهم انهيار الامبراطورية بالدراسة ،

بالاضافة الى ان دراسة هذا الانهيار وعلله الداخلية والخارجية كانت مقدمة تقليدية لكل من تناولوا تركيا الحديثة .

ولكن مشكلة قيام الدولة بقيت مختلطة بالأساطير لم تحل حلا نهائيا .

حتى اذا كانت سنة ١٩٣٤ ألقى فؤاد كوبريلى ثلاث محاضرات فى مركز الدراسات التركية بالسربون ، فنفى عن هذه المشكلة خبث الأساطير ، وقدم لها بدراسة ببليوغرافية نقدية تناول فيها مارجع اليه مؤرخو هــذه المشكلة من مصادر وما غفلوا عنــه أو جهلوه أو لم يحسنوا استغلاله ، وبين كيف يمكن التصدى لحل المشكلة بما بين أيدينا من المصادر .

ولقد كان فؤاد كوبريلى أول من توسل الى دراسة هذه المشكلة بدراسة الحياة الاجتماعية فى الاناضول قبل قيام الدولة العثمانية وفى فترة قيامها .

وجشمته هذه المحاولة أن يدرس الهجرات وآثارها الاتنوغرافية والحضارية فى الاناضــول وأن يدرس المجتمع البدوى والمجتمــع القروى ومجتمع المدن ، ولم يكن بد وهو يدرس هــذا الموضــوع الاخير من أن يلم بعوامل تطور المدن الساحلية والمدن الداخليــة فى الأناضول، ومن أن يدرس طوائف أرباب الحرف والطرق الصوفية.

وأدت به دراسة المجتمع التركى الأناضولى فى العصور الوسطى الى أن يقرر أن الدولة العثمانية كانت دولة من دول ملوك الطوائف

استطاعت بموقعها الجغرافي وبشخصية سلاطينها الأوائل وبنظمها الادارية المحكمة أن تتطور لتصبح امبراطورية .

وقد طبع النص الفرنسى لهذه المحاضرات فى المعهد الفرنسى باستنبول سنة ١٩٣٥ ، وتقبله المتخصصون بقبول حسن، فحللوه وعرفوا به ونقدوه وكان عالم الصينيات الفرنسي المشهور Paul Peliot والاستاذ Skok أستاذ اللغات الصقلية فى جامعة زغرب من أهم من نقدوا هذا الكتاب وعلقوا [1] عليه ولقد حاول Wittek فى محاضرات ألقاها فى جامعة لندن سنة ١٩٣٧ ونشرتها الجمعيه الاسيوية الملكية سنة ١٩٣٨ بعنوان The Rise of the Ottoman Empire أن يعقب على كوبريلى ، ولكن اذا استثنينا قوله بأن انتماء العثمانين الى (قايى) أسطورة صدقها كوبريلى أمكن القول بأنه لم يعقب بشيء ذى بال ، بل يمكن القول بأنه أفاد من محاضرات كوبريلى وبأنه استوحى بخاصة مقالة فردريك جيزه عن قيام الدولة العثمانية [2] ، وما لبث الكتاب أن ترجم الى الروسية ونشر مقالات قصيرة فى جريدة Stamboul الفرنسية فى الفترة من ١٩٣٧ الى

---

(١) كتب بليو مقاله فى مجلة : T'orng Pas العدد «٢» ١٩٣٦ وكتب سكوك مقاله فى Revue Internationale des etudes Balkanique التى تصدر فى بلغراد مجلد ١ ـ ٢ السنة الثانية أنظر مقدمة سبتمبر ١٩٦٦

(٢) رنقلها من الالمانية الى التركية كوبريلى زاده أحمد جمال نى تركيات مجموعة س المجلد الاول أغسطس ١٩٢٥

١٩٣٩، ثم ترجمه الاستاذ نديم فلبووتش الى اللغة الصربية الكرواتية سنة ١٩٥٥ • وقد طبع الأصل التركى لأول مرة سنة ١٩٦٢ بمقدمة للمؤلف لم تكن فى النص الفرنسى ، وبزيادات قليلة وتصحيحات استقاها المؤلف من نقد بليو بوجه خاص •

ولما كنت قد ترجمت فى سنة ١٩٥٨ كتاب بارتولد عن «تاريخ الترك فى آسيا الوسطى» وهو الكتاب الذى لم تبل جدته منذ سنة ١٩٢٧ ولم ينقطع المتخصصون فى الشرق والغرب عن استشارته الى الآن حتى ليعتبر بالنسبة لهم livre de chevet ، كما يرى بحق B. Nikitine ، فقد رأيت أن أترجم أيضا كتاب كوبريلى لأقف القارىء العربى على مرحلة هامة من مراحل تاريخ أتراك الغرب كما وقفته من قبل على تاريخ أتراك الشرق ولأعرض عليه فى موضوع قيام الدولة العثمانية كتابا ما زال هو أيضا كتاب الساعة فى بابه •

وأرجو أن أكون أضفت بهذا النص شيئا الى مكتبتنا التاريخية وأسأل الله أن ينفع به • وهو حسبى ونعم الوكيل •

أحمد السعيد

كوبرى القبة فى

٢٨ ربيع الثانى ١٣٨٥

١٩٦٥/٨/٢٥

النص المترجم

القسم الأول

كيف يجب أن نحقق مشكلة تأسيس الدولة العثمانية

فى القرن الثالث عشرانهارت دولة سلاجقة الروم أمام زحف الغزاة من مغول ايران •

فكيف قام فى القرن التالى تنظيم سـياسى جـديد فى أقصى الشمال الغربى من الأناضول على الحدود البيزنطية السلجوقية ؟ •

وكيف تحول هذا التنظيم فى أقل من مائة عام الى دولةقوية تحكم البلقان وجزءا كبيرا من أناضول السـلاجقة ؟ اننا نستطيع بالنظر الى النتائج الخطيرة والمستمرة التى تمخض عنها هذا الحادث التاريخى أن نعتبر ظهور الدولة العثمانية مشكلة من مشكلاتتاريخ العصور الوسطى •

ولكن هذه المشكلة لم توضح التوضيح الذى تستحق ، فهى لا تزال حتى الآن معمى يحول دون الكشف عنه ركام منالأساطير خلفه لنا أصحاب الحوليات فى العصور الوسطى ، حتى اذاكانت سنة ١٩١٦ وأصدر Gibbons كتابه عن تأسيس الامبراطورية العثمانية :

The Foundation of the Ottoman E m pire.

صار موضوع تأسيس الدولة العثمانية مثار جدل ومناقشـات بين المستشرقين :

فأما Clement Haurt فخص كتاب Gibbons بمقالتين (١) احداهما فى الـ Journal des Savants والأخرى فى الـ Journal asiatique ومع انه يتحـــرز فى هاتين المقـــالتين من قبول بعض التفصيلات ، فانه يقبل النتائج التى توصل اليها Gibbons فى جملتها، ويقرر أننا قد تخلصنا بفضل هذا الكتاب من الأساطير الساذجة التى تغص بها أصول التاريخ العثمانى .

وأما عالم التركيـــات الألمانى F. Giese ، فمع أنه يحاول فى مقال له عن كتاب Gibbons أن ينقض نظريته فى قيام الدولة العثمانية من أساسها وأن يعرض من عنـــده بعض وجهـات النظر الجديدة فانه يقبل بعض النتائج التى توصل اليها Gibbons (٢) .

وقد عني أيضا بهذه المشكلة بعض العناية كل من :

R, Tshudi. (٣) و W. L. Langer, و R. P. Blake, (٤)

و (٥) J. H. Kramers محرر مادة « عثمانلى » فى دائرة المعـارف الاسلامية .

وظهرت ـ عدا ذلك ـ أعمال أُخرى تعالج نقاطا مختلفة تتصل

---

(١) J. A. serie II, Vol. IX (1917) P. 345 — 350., Journal des Savants (avril 1917), P. 157-166.

(٢) Problem der Entstehung des osmanischen Reiches (Zeitschrift für semitistik, Band II, Heft 2 (1928) S. 246 — 271.

(٣) Vom alten Osmanischen Reich, Tubingen, 1930.

(٤) The Rise of the Otioman Tunks and its Historical Background (The american Historical Review, Vol. XXXVII, nu 3, april 1932 ? P. 468 — 505.

(٥) Encylopédie de l'Islam, art Turks IV Histoire 1932.

بهذه المشكلة من بعيد أو من قريب ولكنها ـ خلا كتاب جيبونز ـ خلت محصورة داخل دوائر المستشرقين الضيقة ومجهولة بالنسبة للبيئات التاريخية بالمعنى الواسع •

ومهما يكن من أمر فلابد أن نعترف بأن النتائج التى حصلنا عليها ليست كافية لا كيفا ولا كما ، وبأننا لا نزال بعيدين عن أن نكون قد حللنا لغز تأسيس الامبراطورية العثمانية أو حتى أن نكون قد وضحناه بعض الشيء •

ومن هنا كان حرصنا على أن نختار هذه المشكلة الهامة بقدر ما هى مجهولة لتكون موضوعا للمحاضرة •

ولنبدأ أولا بتلخيص الآراء السائدة فى هذه المشكلة ولننقدها، ولنبحث بعد ذلك فى أى المناهج يجب أن نتبع لكى نستطيع القاء الضوء على هذه المشكلة، فى حدود الامكانيات التى تمدنا بها المصادر الموجودة فعلا بين أيدينا •

فاذا فرغنا من هذا فلنعرض النتائج التى توصلنا اليها بهذا المنهج فى خطوطها الرئيسية ودون ايغال فى التفصيلات الفرعية ، ولنعرض أيضا المشكلات التى لم تُتَناول بالبحث حتى الآن مع أن المنهج يتقاضانا أن ندرسها •

١ ـ نظرية جيبونز

عرض ونقد

الآراء الســـائدة الآن فى موضوع نشوء الدولة العثمانية هى آراء جيبونز ، فهى سائدة بين علماء التركيات وفى دوائر المؤرخين بالمعنى الواسع ، وما زال ينظر الى هذا المؤلف حتى فى أكثر كتب التاريخ جدية كتلك التى تنشر منذ الحرب العالمية الاولى (فى فرنسا مثلا) على أنه مصدر أساسى فى بابه •

والحق أن جيبونز حرر كتابه بعناية ، ودرس بعض النقاط التفصيلية المتعلقة بالتاريخ السياسى والعسكرى بدقة لا نجدها عند من سبقه من المؤرخين وعلل لبعض المسائل الأساســـية تعليـــلات مضبوطة ، ومن أمثلة ذلك قوله ان الامبراطـــورية العثمانيــة لم تستطع توســـيع ممتلكاتها فى الأناضـــول الا بعد غزو شبه جزيرة البلقان ، وقوله أيضا ان فتح العثمانيين للبلقان لم يكن غزوا يقصد فقط الى التدمير والسلب ولكن كان عملية توطين تنفذ طبقا لخطة•• ومع هذا فان نظرية جيبونز الأساسية تبدو لنا واهية الأساس • ٠

ولنلخصها أولا لبيان ذلك :

(أ) كان ارطغرل أبو عثمان الذى نسبت اليه الامبراطورية رئيس قبيلة صغيرة وفدت الى الأناضول فى عهد السلطان السلجوقى

علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيزخانواستقرت في سكود في شمال غرب الاناضول •

(ب) وكان عثمان وقبيلته أتراكا كفارا يزاولون الرعى ، فلما عاشوا فى بيئة اسلامية دخلوا فى الاسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة ، وأثار فيهم هذا الدين الجديد رغبة فيادخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم فى صداقة على الدخول أيضا فى حوزة الاسلام ، ولم يكن تحت امرة عثمان قبل دخوله فى الاسلام الا أربعمائة محارب يقيمون فيدورهم ويزاولون حياة فارغة وادعة •

ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن ضوعف بين سنتى ١٢٩٠ و ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى صاقبت حدود البيزنطيين وأدى ذلك الى ظهور جنس Race جديد انتسب الى رئيسه وذلك هو الجنس العثمانى ، ولم يكن هذا الجنس تركيا خالصا منذ بداية أمره ولكنه كان جنسا جديدا مختلطا ناشئا عن ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون •

(ج) وزاد جمهور العثمانيين بنسبة عظيمة فى وقت قصير ، ومن الخطأ أن يعلل ذلك بالامدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق لأن أراضى العثمانيين كانت تقع فى أقصى غرب الاناضول ، وكان لابد للكتل البشرية لكى تبلغ ذلك المكان أن تلتحق أولا بخدمة حكام آخرين فى شرق الاناضول وأن تأخذ منهم أراضى ،

ومن هنا لا يمكن شرح هـــذه الزيادة الا بذوبان العنصر المحلى المكون كله من الأغريق •

(د) ولا يمكن أيضا أن تعلل سرعة تأصـــل الامبراطورية العثمانية فى البلقان بهذه الاسباب المذكورة وحدها فقد ساعد أيضا على ذلك التأصل الموقف فى بيزنطة وفىالبلقان وفى العالم الغربى•

والى جانب هذه العوامل الخارجية يجب أن نذكر أيضا قوة شخصية السلاطين العثمانيين الأوائل •

ولما كان نصارى البلقان الذين دخلوافىحوزة الحكم العثمانى لم يعيشوا مثل نصارى الأناضول قرونا طويلة فى جوار المســلمين فقد ابتدعت فى عهد مراد الأول طرق جديدة لادخالهم فى الاسلام، ومن هذه الطرق أن أسارى الحرب كانوا يعتقون من الرق اذا هم دخلوا فى الاسلام •

ولكن لما كانت هذه الطريقة لا تطبق الا فى دائرة محدودة فقد كانت نتائجها أيضا محدودة وظهرت الضرورة لتأسيس الجيش الانكشارى (الذى يتكون من أبناء النصـــارى) ، ولوضـــع نظام الدوشيرمه الذى يدخلهم كرها فى الاسلام ، ولقد كانت العناصر الاغريقية والصقلبية فى البلقان تفضل أن تدخل فى الاسلام أفواجا على أن تسلم أبناءها للعثمانيين •

فان أدخلنا فى اعتبارنا أن الجيش الانكشارى لم يكن له حتى فى القرن الخامس عشر ـ أهمية عددية ، ولم يكن يكوّن العنصر

الأساسى فى الجيش رجحنا انه لم يكن تشكيلا يراد به تقوية الجيش وأنه انما كان ـ ببساطة ـ وسيلة لنشر الاسلام •

هذه هى الافكار الرئيسية التى يدافع عنها كتاب جيبونز ، والملاحظ أنه يحاول جاهدا أن يرجع قيام الدولة العثمانية الى سبب دينى خالص ، وانه يعتقد أن الدخول فى الدين الجديد أظهر جنسا جديدا هو الجنس العثمانى •

ويجب أن نلاحظ قبل الشروع فى نقد هذه الأدلة أن ارجاع واقعة تاريخية لها هذه الخطورة الى العامل الدينى وحده انما هو تعليل من جهة واحدة وانه ـ حتى اذا احتوى على حقيقة جزئية ـ قاصر دائما وغير مقنع أمام تعقد الحقيقة التاريخية •• وعدا ذلك فان استعمال المؤلف دائما لكلمة جنس فى مكان كلمة شعب وبالعكس سبب كثيرا من اللبس • ومع هذا فانه اذا كانت الامبراطورية العثمانية وهى حقيقة تاريخية قد وجدت ، فلم يوجد أبدا جنس عثمانى ولا حتى شعب عثمانى •

وأما ما يدعى جيبونز من أن بالمصادر العثمانية من الحجج ما يدل على أن عبارتى (عثمانى) و (تركى) كانتا علمين على شعبين أو على جنسين متميزين فان مرد هذا الادعاء الذى يحاول جيبونز ان يؤيد به جزءا أساسيا من نظريته هو سوء الفهم للمصادر العثمانية ، وذلك أن كلمة (عثمانى) وهى اصطلاح سياسى لا اتنوغرافى كانت تطلق دائما عند كتاب التاريخ القدماء على طبقة

رجال الحكومة والادارة التى تعيش فى خدمة الدولة وتتقاضى منها الأجر .

ولما كنا سنرجع الى هذه المسألة فيما بعد فلندرس الآن على أى الحجج تعتمد دعوى جيبونز أن عثمان وقبيلتــه لم يكونوا فى أول الأمر مسلمين .

لم يدلل جيبونز على هذه الدعوى التى كان يشاركه فيهــا : Noldeke (٦) و Rambaud (٧) قديما ثم Babinger (٨) و Grousset (٩) حديثا بأى دليل معقول .

وليس من البرهان فى شىء أن يقــرر ـ اعتمادا على شواهد اتنوغرافية متأخرة ومشكوك فى صحتها ـ أن قبائل تركمانية ليس لها من الاسلام الا الاسم كانت تعيش فى شمال سوريا وأن هــذه القبائل ـ فى قول مدونى التاريخ ـ كانت لها قرابة بقبيلة عثمان .

لقد كان أقوى ما استند اليه جيبونز فى تقرير هذه الدعوى أسطورتان وردتا فى الحوليات العثمانية القديمة لأن جيبونز يرى من الجائز اذا أعوزتنا المصادر التاريخية فى دراسة فترة ما أن نرجع

---

(٦) Zeitschrift der Deutschen Morgonlàndischen Gesellschaft, Band XIII.

(٧) Lavisse et Rambaud, Histoire génerale, Vol. III, P. 822 — 824.

(٨) Der Islam in Kleinasien, Zeits. Deutsch. Morg. gesellchaft Band 76 (1922), S. 132.

(٩) Histoire de l'asie Vol. I, 1922, P. 274.

ـ بحيطة ـ الى مثل هذه الأساطير لما تعكس من الواقع التاريخى الذى حرفه الخيال الشعبى •

وترد هاتان الاسطورتان براويات مختلفة : ففى بعضها يذكر أرطغرل أبو عثمان بدلا من ابنه •

ويمكن رد هاتين الاسطورتين الى أبسط صورهما على هذا النحو :

(أ) قضى عثمان ليلة فى دار أحد الزهاد المسلمين وقبل أن ينام جاء صاحب البيت بكتاب فوضعه على رف ، فسأله عثمان : ماهذا الكتاب ؟ فأجاب انه القرآن الكريم ثم أجابه حين سأله عن محتواه بأنه كلمة الله أنزلت للناس بطريق النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمل عثمان الكتاب وأخذ يقرأ واقفا حتى الصباح ثم نام فرأى فيما يرى النائم كأن ملاكا يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم لقاء احترامه القرآن •

(ب) طلب عثمان الى الشيخ أده بالى أن يزوجه ابنته فرفض الشيخ طوال عامين وفى احدى الليالى رأى عثمان وهو نائم فى بيت الشيخ كأن قمرا يخرج من صدر أده بالى ويقع فى صدره هو ثم تخرج من سرته شجرة يغطى ظلها الأرض كلها وأوّل أده بالى الرؤيا بأن أسرة عثمان ستحكم العالم وزوجه ابنته •

وانه لمن مجانبة الحيطة كما يقول Giese فى نقده لجيبونز أن نستنبط من هـــذه الأساطير أن عثمان دخل فى الاســلام فى ذلك

الوقت ، وقصارى ما يمكن استنباطه هو أنها محاولة لدعم مشروعية حكم العثمانيين على سائر القبائل التركية بآسيا الصغرى بتدخل الهى .

ومع أن ملاحظة جيزه هذه من الحق بحيث لا تناقش فانى أرجو أن أزيد المسألة تعميقا وأن أبيّن ـ بالمناسبة ـ الى أى مدى يمكن أن تخطىء الاستنباط اذا نحن أغفلنا النقد الداخلى للحوليات القديمة ولا أظننا نستغنى ـ ونحن بصدد الكشف عن طبيعة هذا الموضوع الذى هو نقطة البداية لآراء جيبونز ـ عن هذا الاستطراد بل انى مبيّن فيه أيضا أنواع الحيطة التى يجب التزامها عند استعمال المعلومات التى توردها الحوليات العثمانية بخصوص هذه العهود المتقدمة .

نقرأ فى « طبقات ناصرى » للجزجانى وهو من مؤرخى القرن الثانى عشر رواية شبيهة تماما بهذه الأسطورة :

قبل أن يولد فاتح الهند محمود الغزنوى بساعة واحدة رأى أبوه سووك تكين فيما يرى النائم كأن فى بيته شجرة تخرج من موقد نار وتظلل الأرض كلها ، وأنبأه عابر الرؤى بأن ابنه سيكون غازيا(١٠) .

ويعطينا رشيد الدين الذى حرر وهو فى بلاط الايلخانيين فى القرن الرابع عشر أول تاريخ عالمى وهو كتابه جامع التواريخ

(١٠) The Tabaqat-i Nasiri Kalkutta, 1864 P. 9.

(وذلك فى الجزء الخاص بتقاليد الغـز) وجها آخـر لأسـطورة الشجرة ترى فى الحلم ، والأسطورة فى هذا المقام خاصة بحاكم من حكام الغز الأسطوريين يقال له طغرل وبأخوين له ، فقد رأى أبوهم قبل أن يؤسس هـؤلاء الثـلاثة دولتهم كأن ثلاثة جـذوع تخرج من سرته ثم تأخـذ فى التعـاظم بغير حـد حتى تظلل كل الأرض وتصبح فروعها فى السماء وسأل ساحر القبيلة عن تأويل رؤياه فأنبأه ـ وكان قد أعلن من قبل أن سيخرج من القبيلة حاكم ـ بأن أولاده سيكونون ملوكا وأمره ألا يقص رؤياه على أحد[11] .

وأما موضوع عظمة الأسر جزاء احترام القرآن واخبار الملَك أو النبى بذلك فى الحـلم فقـد ورد نظـيره فى كتـاب من الكتب المعنونة بـ (سلجوقنامه) صنف فى القرن الرابع عشر أى قبل أن تصنف حوليات العثمانيين :

دخل لقمان جد السلاجقة غرفته ليلة زواجه وكانت العـادة فى ذلك الوقت أن يكون فى الجهاز سبعة مصاحف ، وبَصُرَ لقمان بالمصاحف السبعة موضوعة فوق الكراسى الخاصة بها ، فهاله ـ من تقديسه القرآن ـ أن يقضى تلك الليلة فى نفس الحجرة ، وقيـل له ان المصاحف يمكن أن تنقل ولكنه رفض أيضا وصحب امرأته الى مكان آخر .

---

(١١) فى عدد من مخطوطات رشيد فى الجزء الخاص بتقاليد الأتراك الغز

وفى نفس الليـلة رأى النبى صلى الله عليه وسـلم فى المنام ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم ولأولاده بالسعادة الأبدية لقـاء احترامه القرآن [١٢] .

وكثيرا ما تصادفنا رؤى من هذا القبيل فى حوليات التاريخين القديم والوسيط ابتداء من هيرودوت ولكنا نرى أن الأحلام التى ذكرنا هى المثُل الأولى لحلم عثمان .

وأما الرواية الغزية التى أوردها رشيد الدين فأحد احتمالين اما أن تكون رواية شفوية كانت جارية على ألسنة أتراك الأناضول فتلقفها أصحاب الحوليات العثمانيون واما انها اقتبست ـ وهذا هو الأرجح ـ من كتاب رشيد الدين الذى كانت له منزلة خاصة فى البـلاط العثمانى فى القـرن الرابع عشر ثم أسندت بعـد ذلك الى الأسرة العثمانية .

وعنـدما نعرض للوضـع الدينى فى الأناضـول وفى القبائل التركمانيـة فى القـرن الرابع عشر فسنبين فى وضـوح أكثر أن Gibbons قد بدأ من نقطة ضعيفة ونستطيع بهذه المناسبة أن ننبه الى أن الحوليات العثمانية القـديمة تضم أساطير من نفس النـوع وان كانت لها موضوعات أخرى ، ومن ذلك ما يرد فى طيات قصة فتح (بيله جك) من أن رجالا أدخلوا القلعة متخفين فى بعض الأمتعة.

---

(١٢) المكتبة الاهلية بباريس ملحق المخطوطات الفارسية Nom. 1559.

ونجد وجوها أخرى لهذا الموضوع فى القصص الاسلامية الخاصة بفتح سمرقند[13] وفى كتاب طبقات[14] ناصرى وفى الملحمه الأناضولية الخاصة [15] بدانشمند غازى وهو من أشهر غزاة آسيا الصغرى ، وفى ظفرنامه [16] لشرف الدين الذى يتناول مناقب تيمورلنك ثم نجدها أخيرا فى رحلة أوليا جلبى [17] .

ولقد قرر جيبونز تأييداً لرأيه أنه لا يوجد مصدر تاريخى واحد يذكر أن قبيله عثمان أو أى قبيلة من القبائل التى وفدت على الأناضول فرارا من زحف جنكيز كانت على دين الاسلام ، أى أنه مع تسليمه بأن الأتراك السلاجقة الذين توطنوا الأناضول بعد معركة ملاذكرد كانوا مسلمين تماما ، يرى أن القبائل التى فرت أمام غزو جنكيز وظهرت أمام حدود الأناضول فى القرن الثالث عشر لم تدخل فى نطاق التأثير الاسلامى القوى رغم انها عاشت

---

(١٣) باقى : فضائل الجهاد مخطوطة تركية من القرن الخامس عشر وتوجد نسخ منها فى كثير من المكتبات .

(١٤) انظر النص الفارسى ص (٩٥) .

(١٥) انظر كتابنا « تورك أدبياتى تاريخى استانبول ١٩٢٨ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ .

(١٦) انظر النص الفارسى كلكتا ١٨٨٦ ـ المجلد الثامن ص ٢٣٩ .

(Bibliothec a Indica).

(١٧) سياحتنا من المجلد الثامن ص ٢٠٩ وللاطلاع على وجوه أخرى انظر :

J. G. Frazer le Romeu dor Paris 1924 P. 267.

أجيالا كثيرة على الحدود الايرانية ، ويرى أن قبيلة عثمان الصغيرة ـ مثلها كمثل هذه القبائل ـ لم تترك الوثنية الى الاسلام الا بعد أن استقرت بين الأتراك المسلمين فى غرب الاناضول •

الحق أن جيبونز لم يكن واقفا على الأحوال الدينية فى الاناضول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر فترتب على ذلك أن كانت آراؤه فى هذا الموضوع متهافتة فى كثير من وجهات النظر تهافت آرائه المعتمدة على أسطورة حلم عثمان المذكورة آنفا ، وبالاضافة الى ذلك فان جيبونز ـ لخلو ذهنه من أى فكرة عن التنظيم الاتنوغرافى للترك وعن ظروف توطنهم فى الاناضول ـ لم يخطر بباله أن عبارة (سلاجقة) مثلها كمثل عبارة (عثمانيون) علم سياسى لااتنوغرافى ، وأنها مشتقة من اسم مؤسس الأسرة •

ولكن لجيبونز فى هذا المقام خطأ أكبر يجب أن نشير اليه فقد زعم أن القبيلة التى ينتمى اليها عثمان هى احدى القبائل الفارة أمام غزو جنكيز خان ، جاءت لتستقر فى الأناضول ، ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا الزعم كأنه حقيقة انعقد عليها الاجماع ، ونقرر أن المعلومات الخاصة بهذا الموضوع والواردة فى كتب الحوليات العثمانية التى ترجع الى أواخر القرن الرابع عشر غير جديرة بالثقه ، وأن جيبونز عجز ـ لأنه ليس من أصحاب الدراسات التركية ـ عن أن يقوّم هذه المصادر كما ينبغى •

واذا كانت المصادر الخاصة بالعصر السلجوقى خاليه تماما مما

يثبت وجود هجرة فى ذلك الوقت نحو الحدود الغربية للامبراطورية السلجوقية فاننا مضطرون ـ استنادا الى المعلومات التى بين أيدينا اليوم ـ أن نرجح ـ كما سنبيّن فيما بعد ـ أن قبيلة عثمان كانت من القبائل التى وفدت على الاناضول بعد فتحه على يد السلاجقة أول مرة •

ولكن الخطأ استقر منذ قرون فى الحوليات العثمانية القديمة وفى الكتب الأوربية المعتمدة على هذه الحوليات فتلقاه المؤلفون جميعا الشرقيون منهم والغربيون ممن تناولوا تاريخ العثمانيين بعد Hammer كأنه حقيقة • وربما كان من الاجحاف أن نحمل جيبونز مسئوليه هذا الخطأ فلم يكن خطؤه الا أنه قبل الاسطورة التى صنعتها عقلية كتاب التاريخ فى العصور الوسطى دون احساس بالحاجة الى نقدها •

ومع هذا فان هذا الخطأ الأول لجيبونز لا يقاس بخطأ له ثان سندقق فيه النظر الآن :

لقد فرض جيبونز أن الامبراطورية العثمانية خرجت من قبيلة بدوية أو شبه بدوية تضم فى جملتها أربعمائة خيمة وشرح تطور الحوادث بعد ذلك على أساس أن هذه النقطة قد فرغ منها ، والواقع أن هذه الطريقة من طرق النظر مازالت تتناقل ابتداء من أصحاب الحوليات العثمانية القدماء الى جيبونز بل الى ما بعده دون أن تكون موضع نقد ولم يتخل عنها المؤرخون الغربيون ولا الشرقيون لأنهم اغتروا ببساطتها •

ولقد كان كتاب الحوليات فى العصور الوسطى يعللون هـذا الحادث الخارق وهو قيام الدولة العثمانيـة بعلل غير طبيعيـه تلائم أذهانهم اللاهوتيـة كالذى رأينا من أسـطورة الحلم ولكن منطق القرن العشرين لا يقنع بهذا النوع من التعليلات حتى ولو أمكن ـ بشىء من التأويل ـ أن نصبغه بصبغة واقعية • نعم ؟ لقـد كان جيبنونز شديد الايمان بالروايه القائله ان الدولة العثمانيـة نشأت فى جماعة من أربعمائة خيمه ولكن : ألم يكن من الترك الوافدين على الاناضول قبل قبيلة عثمان أو معها فى وقت واحد من التحق بالعثمانيين ؟ وهل كان بطن صغير كذلك الذى ينتمى اليه عثمان يقوى بامكانياته وحده على ايجاد تنظيم يستطيع عثمان ان يطاول به بيزنطه وأن يحكم به ـ فى زمن قصير ـ بلاد البلقان •

ان جيبونز يجيب عن هذين السؤالين البسيطين دون أن يبذل جهداً أى جهـد ودون أن يرجع الى أى وثيقـة أو أن يأخـذ فى اعتباره ظروف الأناضول التاريخية فى تلك الحقبة •

لقد وضع مقدمات باطلة فاستنبط منها نتائج خاطئة وهـــذا هو يقول :

انه قبل انتهاء عهد أورخان كانت كتلة المغامرين الآسـيويين التى تجمعت من قبل حول عثمان قد زادت حتى بلغت نصف مليون ولم يكن من المعقول أن تكون هذه الزيادة طبيعية ، كما لم يكن من المعقول أن تكون نتيجة امدادات من البـدو الوافدين من الشرق

لأن الاتصالات كانت منبتة بين أورخان وبين الأراضى الآسيوية الداخلية ، ولقد كان منافسوه أى بكوات الاناضول الآخرون لا يتوانون عن اغراء هؤلاء المغامرين قبل وصولهم الى أورخان ، ومن هنا فقد كوّن أورخان شعبه من العناصر المحلية وأغلبها من الاغريق » •

وبعد أن قرر مؤلفنا أن هذه العناصر كوّنت ـ بدخولها فى الاسلام ـ الجنس العثمانى ، أضاف أن العناصر اللازمة لتنظيم الدولة كانت موجودة بين الاغريق الذين هم أقدر من الأتراك البدو على مثل هذه المهمة •

هذا هو رد جيبونز على السؤالين اللذين طرحناهما وهو رد يلائم الرأى الذى كان سائدا بين المؤرخين الغربيين من قبله ، والذى ما زال ينظر اليه حتى الآن كأنه من المسلمات (١٨) •

ولكن سيتضح فيما بعد أن هذه السلسلة من التعليلات ليست الا أوهاما وأحكاما ارتجالية لا تمت للحقيقة التاريخية بصلة ، فقد كان المسيحيون الداخلون فى الاسلام من أمثال أسرة كوسه ميخال نادرين جدا بين رجالات الامبراطورية العثمانية فى القرن الرابع عشر بل فى النصف الأول من القرن الخامس عشر •

---

(١٨) نكتفى هنا بمثال واحد أنظر Ch. Diehl Byzance, grandeur et Décadence, Paris, 1919 P. 325 — 326.

وكما كانت البيروقراطية التى تستمد أصولها من التقـــاليد السلجوقية والايلخانية مكونة كلها من عناصر تركية فكذلك ، وكما يستدل من الوثائق التى بين أيدينا على نحو قاطع ـ كان كبار رجال الادارة وقادة الجيش يكادون أن يكونوا جميعا من الترك • ولم يكن ما اعتور هذه الارستقراطية التركية القابضة على مقاود الادارة فى الدولة من قلة العدد وضعف النفوذ ، ثم ما ولى ذلك من احلال أولاد الدوشيرمه محلهم فى المناصب لم يكن ذلك سابقا على النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ولقد كانت هذه الاستعانه ضرورة فرضت نفسها على كل الامبراطوريات ذات الحكم المطلق المكونة من عناصر غير متجانسة ، وكانت لها أسبابها الخاصة ، ومن العبث أن نعزوها الى « عجز الأتراك البدو عن أن ينظموا دولة » •

واذا سلمنا بما يقال من أن قبيلة عثمان كانت لا تزال بدوية أو سبه بدوية فى بداية القرن الرابع عشر ، وفى أوائل أيام الدولة العثمانية ، فلا شك مطلقا فى أن الحياة فى المدن كانت متطورة فى ذلك الوقت بدرجه كافيه عند أتراك الاناضول ، ولا شك أيضا فى أن العثمانيين كانوا يجدون كل العناصر اللازمة لادارة الدولة بين من كونتهم الأنظمة الادارية فى الدولتـين السـلجوقية والايلخانية وفيمن تمرسوا بالادارة فى امارات الاناضول التى أسست قبل القرن الخامس عشر بل فى من خرجتهم الأجهزة الادارية فى الامبراطورية المملوكية فى مصر وسوريا ، وان فى وسعنا أن نقرر ـ على العكس تماما مما يقول جيبونز ـ ان مناطق الحدود ـ وفيها ظهرت دوله

العثمانيين ـ كانت كفيلة بجذب جماعات المهاجرين لا من البدو فقط ولكن من أهل الحضر أيضا ومن كل أنحاء الاناضول .

ولسنا نريد ونحن نقرر هذا أن ننكر أن التبشير الاسلامى قد نشط بين العناصر المسيحية المحلية فى بلاد العثمانيين ولكننا لانقبل القول بأن دخول هذه العناصر فى الاسلام وخاصة فى القرن الرابع عشر ـ كان من السعة بالدرجه التى يزعمها جيبونز .. السعه الكفيله بأن تخلق جنسا أو شعبا جديدا كل الجدة مغايرا للترك ويعتبر ـ فى نفس الوقت ـ النواة الأولى لامبراطورية كبيرة .

وأما قول جيبونز ان الامبراطورية العثمانيه وضعت نظام الدوشيرمة خصيصا لنشر الاسلام فى البلقان فقول فردى معتسف لا يتفق مع الوقائع التاريخية .

ومع أن جيزه Giese لم يأت فى حديثه عن تهافت نظرية جيبونز ببرهان قاطع ولا بدليل مقنع فانه بسط المسألة ووضعها واضحة بين أيدى الباحثين ، وعنده أن طائفة الآخيان التى تحدث ابن بطوطة عن أهميتها الاجتماعية فى الاناضول فى القرن الرابع عشر لعبت الدور الأهم فى تأسيس الدولة العثمانية وان الشيخ أده بالى حما عثمان وكثيرا من رفاق عثمان فى ميدان الحرب ، وأخاه علاء الدين باشا نفسه كانوا جميعا من هذه الطائفة .

ويرى جيزه أيضا ان العثمانيين الأولين قد استعانوا بهذه

الطائفة الدينيه على تأسيس الامبراطوريه، ولما أسسوا أول تنظيماتهم العسكرية وهو جيش المشاه المعروف بـ (با يا Ya Y a) • ألبسوه زى الآخيان ، ولما أسس الفيلق الانكشارى فى عهد مراد الأول احتفظوا له بغطاء الرأس الذى يستعمله الآخيان •

ولقد كان Clement Haurt على حق حين دعا ـ من قبل Giese ـ الى ألا نغفل أدوار الطوائف الدينية المختلفة وطائفة الآخيان بخاصة فى تأسيس الامبراطورية العثمانية ، ولقد أبرزت أنا ـ وقبل جيزه أيضا ـ أدوار الطوائف الدينيه ودور البكتاشيه فى تأسيس الجيش الانكشارى ، وذلك عندما تناولت الأوضاع الدينية فى الاناضول ابان تأسيس الامبراطورية العثمانية ، فى سلسلة من المقالات نشرتها سنة ١٩٢٢ بعنوان « الاسلام فى الاناضول » [١٩] •

ومع أننى لا أستطيع أن أشارك جيزه آراءه ، وسبق أن بينت رأيى فيها [٢٠] فلا بد من الاقرار بأن هذا العالم الألمانى قد أسهم فى توجيه المشكلة توجيها جديدا بتصحيحه أخطاء جيبونز وبابرازه دور الآخيان فى تأسيس الدولة العثمانية ؛ يقول جيبونز : يجب

---

(١٩) أناطوليدة أسلاميت ، أدبيات فاكولتهسى مجموعه سى ١٩٢٢ المجلد الثانى العدد (٥) •

(٢٠) عثمانلى دولتنك قورولوشى ، حيات مجموعه سى عدد ١١ ، ١٢ ، ١٩٣٧ •

أن نطـرح من الآن الفكرة الخاطئة القائلة بأن عثمان بمفـرده ، وبقبيلة تركمانية من أربعمائة خيمة قد ألقى أساس الدوله العثمانيه»

ان الأسئلة ـ والحق يقال ـ ما زالت واردة فى أمر هـــذه المشكله ولكن العمل على محو المفاهيم الخاطئة فى أى مشـكلة من المشاكل انما هو خطوة نحو الحل •

٢ ـ كيفية دراسة المشكلة

دراسة علمية

ان كل هـــذه الايضاحات كافية لبيـان مدى التخلف الذى ما زالت عليه دراسة نشوء الامبراطورية العثمانية ، واذا كنا قـد شجبنا نظرية جيبونز القاصرة والتى أقامها صاحبها على أسـطورة وجدنا متـالها الاول فى مصادر سـابقة على حوليات العثمانيين فان معلوماتنا عن هذه الواقعة التاريخية الهامة من وقائع العصور الوسطى المتأخرة ليست أكثر تقدما منها فى أيام هامر أو ـ بصراحة أكثر ـ اننا لم نتخلص حتى الآن من أقاصيص قـدماء أصـحاب الحوليات العثمانيه الساذجة ولكننا ، من غير شك ، وبفضـل التقدم الذى أحرزه البحث فى تاريخ العصور الوسطى الغربية والبيزنطية منـذ قرن من الزمان ، قد أوتينـا من العلم بالأوضـاع فى بيزنطة وفى البلقان فى القرن الرابع عشر ما لا يمكن أن يقاس بما كان معروفا أيام هامر ، كما وقفنـا أيضا على العـوامل الخارجية التى يسرت

سرعة تطور القوة العثمانية فى شبه جزيرة البلقان ، ولا شك فى أن هذا كله كفيل بأن يعيننا على فهم نشأة الدولة العثمانية .

ولكن الحقيقة الواضحة أيضا هى أنه لا بد لحل هذه المشكلة من الوقوف قبل كل شىء على عواملها الداخلية ، فمن وجهة النظر الاتنوغرافية :

الى أى بطن ينتمى مؤسسو الامبراطوريه العتمانية ؟

وفى أى زمان جاءوا ليستقروا فى شمال غرب الأناضول ؟ وماذا كان وضعهم الاجتماعى : هل كانوا بدوا ؟ هل كانوا نصف بدو أم هل كانوا أهل حضر ؟ وهل تزايدت كتلتهم البشرية بما يتناسب مع تزايد دورهم السياسى ؟ والى أى مدى كانت العناصر التى زادت كتلتهم بالالتحاق بهم تركية ؟ والى أى مدى كانت أجنبية ؟ وماذا كانت نسبة العناصر الوافدة من الخارج الى العناصر المحلية وماذا كان بين العنصرين من صلات ؟ وماذا كانت نسبة العناصر البدوية الى العناصر الحضرية والزراعية ؟ وكيف كانت العلاقات بين المسلمين والنصارى ، وما مدى قوة الطبقات الاجتماعية ودور كل منها فى تأسيس الامبراطورية ؟ وهل كانت الامبراطورية العثمانية تشكيلا ديمقراطيا أو كانت تشكيلا ارستقراطيا ؟ وما التحول الذى طرأ على معنى السيادة فى القرن الرابع عشر ؟ والى أى مستوى وصلت الحضارة المادية والروحية ؟

ان ها هنا مجموعة من الأسئله الأساسية تتعلق بالاتنوغرافيا

وبتاريخ الديانات وتاريخ القانون والتاريخ الاقتصادى أو تتعلق ـ اذا أردنا الايجاز الشديد ـ بتاريخ الحضارة المادية والروحيه ، ولا بد بادىء ذى بدء من أن تكون لدينا فى موضوعها معلومات كافيه .

ولكننا لا نجهل هذه العوامل الداخلية فقط بل نجهل أيضا ظروف الشرق الأدنى التاريخية فى القرن الرابع عشر وهى عوامل خارجية لا غنى عنها لفهم تطور الامبراطورية العثمانية ولا نعرف حتى الآن يقينا الدور الذى لعبته امبراطورية القبيلة الذهبية فى الأناضول فى الفترة التى نتحدث عنها ولا الدور الذى لعبته الامبراطورية التركيه فى مصر والشام ، وما زالت معلوماتنا غير كافية عن الامارات الأناضولية ماذا كان موقفها الواحدة تجاه الأخرى وماذا كان موقفها ازاء هذه القوى الخارجية ثم ازاء العثمانيين .

أليس التصدى لحل مشكلة قيام الدولة العثمانية مع وجود هذه الظروف وهذه المجهولات تعرضا لمهمة لايمكن أن تتحقق ؟ ان جميع الذين تناولوا هذه المشكلة ـ ولا أستثنى منهم أحدا حتى جيبونز نفسه ـ لم يدققوا النظر الجاد فى هذه الأسئلة التى عددناها، بل لم يفكر أحد منهم فى أن يبسطها للدرس .

وانه ليحق لنا أن نأسف لأن كل الأعمال الخاصة بتاريخ العصر الوسيط الشرقى لم تتخط مرحلة التاريخ الروائى القانع

بسرد الحوادث السياسية والعسكرية ولأن النتائج التى قدمتها لنا الدراسات الخاصة ببداية عهد الامبراطورية العمانية حتى من وجهة النظر البسيطة السياسية والعسكريه نتائج هزيله مختزله ومتناقضة فى أغلب الأحيان ، ولكن ، أنعزو هذا كما فعل جيبونز الى فله ما بين أيدينا من المصادر التاريخية ؟ وهل عدم كفايه المواد يجعل الدراسات الجادة للأسئلة التى ذكرناها أمرا مستحيلا ، وهل قضى على مشكلة نشوء الدولة العتمانيه بأن تبقى بغير حل كأنها المعادلة المختلة الطرفين ؟

لا نظن ذلك ، وتأييداً لرأيى فسأحدد قبل كل شىء طبيعه المصادر التى بين أيدينا وقيمتها ، وسأذكر بعد ذلك أى منهج يجب أن نتبع •

(أ) المصادر

المصادر الاسلامية الخاصه بالاناضول فى القرن الرابع عشر وهو قرن تأسيس الامبراطورية العثمانية نادرة ولا تكفى واذا استثنينا بعض الكتب ذات الأهمية المحدودة والمحررة فى داخل امبراطورية الايلخانيين وبعض الفقرات التى حررها أصحاب الحوليات وكتاب التراجم من المصريين ومشاهدات ابن بطوطة ، أمكن القول بأن الانتاج التاريخى المخصص للأناضول مباشرة لم يك شيئا فى ذلك القرن •

ولكن جيبونز — الى كل ذلك — لم يستعمل من هذه المصادر

القليلة التى ما زال معظمها مخطوطا الا ما ترجم الى اللغات الغربية ، وهذه الترجمات ـ الى قلتها ـ ترجع الى عهود قديمة لم تكن الدراسات الشرقية فيها متقدمة كما هى اليوم ، ثم هى ترجمات نصوص غير محققة قرئت قراءة سيئة وفسرت خطأ فهى غير جديرة بالثقة •

ومع هذا فيمكن أن نرجع بالاضافة الى هذه النصوص ـ الى مصادر أخرى هامه خاصة بتاريخ هـذه الحقبة مثل كتاب جامع التواريخ وتاريخ أولجايتو ثم صبح الأعشى والتعريف ، ونستطيع كذلك الرجوع الى كتب حررت فى القرن الخامس عشر ولكنها تضمنت معلومات قيمة عن القرن الرابع عشر مثل تاريخ العينى والدرر الكامنة •

وأما بخصوص الكتب التى حررت فى الاناضول فى القرن الرابع عشر فانها مع كونها محدودة جدا فانها لم تستعمل حتى الآن الا قليلا ، ونستطيع أن نضع على رأس هذه الكتب الحوليات الفارسيه المعنونة بمسامرات الأخبار لمحمود بن محمد الآقسرايى وذلك لقدمه وأهميته ويتكون هذا الكتاب الذى توجد منه نسختان فى استانبول احداهما فى مكتبة أيا صوفيا تحت رقم٣١٤٣والاخرى بمكتبة يكى جامع تحت رقم ٨٢٧ ، يتكون من أربعه أقسام أضخمها وأهمها هو الأخير الذى يكون ثلثى الكتاب والذى يعالج ـ معتمدا على مشاهدات المؤلف ـ تاريخ الايلخانيين ومتأخرى السلاجقة الذين كانوا تحت حمايتهم •

وقد حرر هذا الكتاب سنة ٧٣٢ (١٣٢٣) وقدم الى حاكم الايلخانيين على الاناضول دميرداش ابن الأمير جوبان ٠

ولكنه لم يستغل حتى الآن كما ينبغى ولم يقرأه من المؤرخين العثمانيين الا منجم باشى ثم عنى به بارتولد بعض الوقت (٢١) ٠

ويأتى بعد ذلك كتاب القاضى أحمد النيكدى المحرر سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢) والمعنون بـ (الولد الشفيق) وهو لم يستعمل حتى الآن وتوجد نسخته الوحيدة فى مكتبة الفاتح تحت رقم ٤٥١٩ ويضم هذا الكتاب الذى يمكن وصفه بأنه دائرة معارف للعلوم الاسلامية معلومات عن تاريخ السلاجقة ومواد عظيمة الأهمية للتاريخ الدينى والاجتماعى للأناضول فى القرن الرابع عشر ٠

ويتناول المؤلف فيما تناول من تاريخ الدول الأولى تاريخ السلاجقة ولكن باختصار شديد واذا استثنينا ما قال عن السلاطين المتأخرين فكلامه فى تاريخ السلاجقة غير هام ولكن قيمة الكتاب مع هذا كبيرة فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعى ، وقد ذكر المؤلف انه أفرد تاريخ السلاجقة بكتاب ولكن هذا الكتاب لم يعثر عليه من أسف حتى الآن ٠

---

(٢١) W. Barthold. Zap. Vost. Otd Imper. Russk. archeol, Ob. XVIII, 0124.

ويلى ذلك الكتاب كتاب الحوليات الكبير الذى ألفه عزيز بن أردشير الاسترابادى والمعنون بـ (بزم ورزم) والمقدم الى القاضى برهان الدين سلطان سيواس ، وهذا الكتاب الذى نشره معهد الدراسات التركية باستانبول سنه **١٩٢٨** هو أهم ما نملك من مصادر فى تاريخ الاناضول فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر •

واذا أضفنا هنا الكتيب المعنون بـ (سلجوقنامه) والمحفوظ فى المكتبة الاهلية بباريس والذى درسه Houtsma [٢٢] قديما فاننا نكون قد سردنا القائمة الكاملة للمصادر الرئيسية التى كتبت فى الأناضول فى القرن الرابع عشر (وقد جهل جيبونز هذا الكتاب الأخير لسبب ما) •

وربما أمكننا أيضا أن ندكر كتابا مشكوكا فى قيمته وان كان قد حرر فى القرن الخامس عشر وذلك هو كتاب « شكارى » الخاص بتاريخ دولة قرمان[٢٣] ، وكذلك كتاب (دستور نامه أنورى) الذى يبدو انه صنف بالاستعانة بنص قديم عن تاريخ آيدين ولا يخلو هذا الكتاب من أهمية فيما يتعلق بتاريخ العثمانيين فى القرن الرابع عشر والخامس عشر •

ولا يقف أمر المصادر الخاصة بالاناضول فى القرن الرابع

---

(٢٢) Mededeelingen AK. W. amsterdam; ofd. letterkunde, 3 Reihe, 9 Teil, 1893.

(٢٣) P. Wittek, Das Fürstentum Mentesche (Istambuler. mit-teilungen 2, 1st, 1934 S, 50 Not 2).

عشر عند هذا الحد فلدينا أيضا مجموعات الكتابات الرسمية المعروفه بالمنشآت ، وكتب مختلفة فى الأدب والتصوف وكذلك الوقفيات وكتب مناقب الأولياء وغيرها وقد ترجم أحد كتب المناقب وهو كتاب الافلاكى الى الفرنسية بقلم : Clement Huart وبعنوان Les Saints des denviches tourneurs.

وبعد أن نشره هيوار تنبه الى أنه ليس مصدرا للأوضاع الدينية فقط ولكنه مصدر تاريخى فى نفس الوقت وذكر فى مقال له فى ال Journal asiatique قدرا من المعلومات التاريخية التى استخلصها[٢٤] منه ولما ضاهينا نحن ما ورد بهذا الكتاب عن امارات الأناضول بعدد من الوثائق التاريخية المختلفة قررنا انه مصدر تاريخى جدير بالثقة[٢٥] .

ولا ندعى بذلك أن كل مجموعات المناقب لها مالكتاب الافلاكى من قيمة تاريخية ولكنا نستطيع القول بأن هذا النوع من الكتب - اذا أخضع لعمليات النقد التاريخى المحكم- مصدر أساسى للتاريخ الاجتماعى .

ويكفى هذا العرض السريع لبيان أننا نملك قدرا من المصادر الهامة عن تاريخ الاناضول فى القرن الرابع عشر .

---

(٢٤) De la Valeur Historique des mémoires des Derviches Tour-neurs (J. A., XI, serie t/XIX (1922), P. 308 — 317.

(٢٥) أنظر « أناطولى بكلكرى حقنده نوطلر » تركيهات مجموعة سى المجلد الثانى ١٩٢٨ ص ١ - ٣٢ .

وعدا هذا فان الأبحاث الابيجرافية والنمية التى تمت فى البلاد الشرقية وبخاصة فى تركيا طوال هـــذه الخمسة والعشرين ســنة الاخيرة هيأت لنا أن نجمع عن فترة قيام الدولة العثمانية قدرا كبيرا من الوثائق •

ولكن المعنيين بدراسة نشوء الدولة العتمانية من علمـاء الغرب سواء من يجهل منهم اللغات الشرقية مثل جيبونز أو من يعـــرفها كالمستشرقين لم يستغلوا جميعا المصادر التى ذكرنا كما ينبغى وقنعوا بمعلومات مستخرجة من بعض الحوليات القليلة الاهمية •

ويمكن فى هـــذه الظروف أن نفهم بسهولة لمـاذا لم تظهر دراسة جادة عن تاريخ الاناضول الاجتماعى فى القرن الرابع عشر، ومن الواضح أننا نخطىء اذا رددنا هذا الى قلة المواد وعدم كفاية المصادر فقط •

ولكيلا يقع شىء من سوء الفهم فانى أذكر هنا نقطة هامة وهى ان المعنيين بدراسة مشكلة قيام الدولة العثمانية لم يستشعروا جميعا الحاجة الى دراستها فى إطار التاريخ العام للاناضول فى القرن الرابع عشر ولذلك لم يجشموا أنفسهم الاستيعاب الكامل للمصادر التى ذكرناها وانما ركزوا كل عنايتهم وانتباههم على نقطة واحدة هى البحث عن مصادر خاصة بالامبراطورية العثمانية وبالأسرة العثمانية ثم حاولوا حل مشكلة قيام الدولة بالاعتماد على هذه المصادر وحدها

وكان من الطبيعى أن يؤدى بهم هذا التصور للمشكلة الى طريق مسدودة •

ولقد قرر جيبونز - وهو ضحية هذه النظرة القاصرة - انه لاتوجد مصادر عثمانية قديمة خاصة بتاريخ العثمانيين وأن الحوليات القديمة التى تتحدث عن تاريخهم ترجع الى أواخر القرن الخامس عشر ، وان المؤرخين البيزنطيين والغربيين بدورهم لا يمدوننا بالمعلومات الجديرة بالثقة عن نشأة العثمانيين المتواضعة •

وهذه الدعوى من دعاوى جيبونز الذى لاتتجاوز معلوماته عن أقدم المصادر العثمانية المحررة داخل أراضى العثمانيين معلومات هامر دعوى صادقة فى جوهرها •

ويكاد الوضع الآن لا يفترق عما كان عليه رغم كثرة ما حقق من الحوليات العثمانية القديمة وما طبع من النصوص الجديدة منذ سنة ١٩١٦ •

ومع هذا فان بين أيدينا اليوم مصادر لم يكن يجهلها جيبونز فقط بل لم يطلع هامر نفسه على كثير منها، ومن هذه المصادر كتاب تاريخ عاشق باشا الذى نشر نشرتين متميزتين احداهما عن الأخرى الأولى من عمل (عالى) والثانية من عمل (جيزه) وكتاب : (تواريخ آل عثمان) وهو كتاب مجهول المؤلف نشره جيزه أيضا ، وتاريخ أوروج بك الذى نشره Babinger ، وتاريخ لطفى باشا المطبوع

فى استانبـول وبهجة التـواريخ للمؤرخ شكر الله وقـد نشره Th. Seif ، وتاريخ قرماني محمد باشا وقد نشره مكرمين خليل كما نشر دستورنامهء أنورى •

ومن هذه المصادر القطعه التى أضافها الشاعر احمدى فى آخر منظـومته الكبيرة اسكندرنامه المكتوبة أواخـر القرن الرابع عشر وكذلك كتب بهشتى وروحى وابن كمال وهى تواريخ مختلفة عن آل عثمان ما زالت مخطوطة تم تاريخ العثمانيين للقنوى وكتب كثيرة من هذا القبيل مجهولة كلها عند هامر ، ولكنها غير مجهولة فى عالم العلم ، وان كانت لاتزال مخطوطة(٢٦) فاذا أضفنا الى ذلك بعض قوائم الكتب المجهولة المؤلفين (٢٧) وبعض المجموعات المعروفة بقانوننامه(٢٨) من المطبوعه فى استانبول وفينا وبعض الوثائق الرسميه النادرة(٢٩)، واذا أدخلنا فى اعتبارنا الأبحاث الأبيجرافيه والنميه التى تمت فى الخمسة والعشرين عاما الأخيرة عن الحقبة العثمانية أدركنا الى أى حد تندر المصادر عن تاريخ العثمانيين فى القرن الرابع عشر •

---

(٢٦) F. Babinger, Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke, Leipzig 1927.

(٢٧) مكرمين خليل ، دستور نامه أنورى (مقدمه) تركى ص ٦١ •

(٢٨) ملى تتبعان مجموعة سى (عدد ١ ، ٢) تاريخ عثمانى انجمنى مجموعة سى (سنة ٣ ، ٤) •
Mitteilungen Zur Osmanischen Geschichte; nu. I.

(٢٩) نشر معظم هذه الوثائق القديمة فى مجلة تاريخ عثمانى انجمنى •

واذا استثنينا بعض الحوليات الخاصة بأوائل القرن الرابع عشر أو نصفه الأول فان بقية الانتـاج انتاج متأخر من النـاحية الزمنية ويرجع بعامة الى أواخر القرن الخامس عشر أو حتى الى مابعده .

وأما الكتب التي حررها كتاب التاريخ والتى تعطى عن الفترات الأولى للامبراطورية العثمانية معلومات معتمدة على الروايات الشعبيه الشفويه أو على الاساطير المخترعة لغايات خاصة فانها ليست الا امتدادا للملاحم الشعبية القديمة ويجب ألا ننسى انها جميعا ينسخ بعضها عن بعض بفروق لا تكاد تذكر ، ولا بد ـ لكى تستغل هذه الكتب ـ من أن تمحص وتعالج بقواعد النقد التاريخى .

واذا كنا قد أشرنا الى ندرة الوثائق الرسمية الخاصة بالقرن الرابع عشر فذلك لأن مكرمين خليل قد أثبت أن ما ورد فى منشآت فريدون بك من الوثائق الخاصة بهذه الفترات الأولى منتحل[30] عن آخره وهذه هى الوثائق التى كانت تستعمل حتى الآن بتحفظ يقل أو يكثر حول موثوقيتها كمصدر رئيسى .

ومع هذا فلو عرف مؤرخ هـذه المصادر الجديدة التى كان يجهلها جيبونز واستعملها كلها فلن يكون موقفة خيرا من موقف جيبونز بكثير ما لم يتجاوز المجال الضيق الذى التزمه جيبونز وذلك

---

(٣٠) تاريخ عثمانى انجمنى عدد ٧٧ ، ٨١ .

أن هذه المصـــادر لا تعطى عن تاريخ الفترة الأولى للامبراطـورية مواد مغايرة للمواد التى كانت معروفة من قبل •

هذا ، وليس لنا أن نتطلع ـ فى تاريخ هذه الحقب المتقدمةـ الى الحصول على مصادر اسلامية أو بيزنطيه أو اغريقية أكثر ممـا كان معــروفا ســـنة ١٩١٦ ، نعم ، ان النشرات المحققه للحوليات البيزنطيــه التى نرجع الى القـــرن الرابع عشر قد تصـــحح بعض التفاصيل الخاصــة بتاريخ العـمانيين فى ذلك القــرن كما أن بعض الوثائق التى يمكن العور عليها فى الأرشــيفات الايطالية قد تلقى الضوء على بعض مسائل تاريخ الشرق الأوسط فى تلك الفترة •

ولكن ليس فى الممكن عقلا أن نعثر فى المصادر المصرية أو البيزنطية أو الغربيه على وثائق جديرة بالثقه تتعلق مباشرة بنشــوء الدولة العثمانية •

فماذا نصنع ازاء عدم كفايه المصادر العثمانيه عن القرن الرابع عشر ، ربما أمكن اذا أمعنا النظر فى الآثار الأدبية والعلمية والوثائق المختلفــة النى كتبت فى تلك الفترة فى المنــاطق العثمانية أن نلقى الضوء على بعض المســائل التى لم توضحها كتب الوقائع وبخاصــة المسائل المتعلقة بالتاريخ الاجتماعى ، ولكنى أظن أن هذه المصادر لن تكفى هى أيضا لتوضيح هذه المشكلة الكبيرة ، ولنتقدم الآن الى جوهر دعوانا : ان استعصاء مشكلة قيام الدولة العثمانية على الحل حتى الآن لا يرجع الى قلة المواد التاريخية أو الى عدم كفاية المصادر

فحسب وانما يرجع قبل كل شيء الى خطأ فى طريقه التناول ناشيء
عن عقيدة ساذجة خاطئه ولا تمت للعقليه التاريخية بصله واذا لم
تتخلص من هذه العقيدة الخاطئة الواردة فى الحوليات العثمانيـة
القـديمة والتى يتنافلها المتـوغلون فى تاريخ العثمانيين فى الشرق
والغرب فستظل هذه المعضلة المستغلقة بغير حل .

(ب) منهج البحث

وسأحاول الآن أن أشرح هذه الفكرة الخاطئه فى بســاطه
وايجاز بعــد اذ حاولت منذ سنين طـويلة أن أخوض أركانها فى
أبحاثى عن التــاريخ الادبى والدينى والقـانونى للدوله العثمانية
وسأتحدث أيضا عن كيفيه طرح مشكلة قيام الامبراطوريه العثمانيه
للبحث وعن نوع العقليه التى يجب أن تتناول بها وعن المنهج الذى
يجب أن يتبع فى معالجتها .

انه لمن الخطأ أن نعزو تأسيس الامبراطوريه العثمانية الى قبيلة
من أربعمائه خيمــه كانت تقطن فى القــرن الثالث عشر الحـدود
البيزنطية السلجوقية فى أقصى الشمال الغربى من الاناضول ، دون
أن تفكر ـ لشرح هذه الواقعة ـ فى الظروف التاريخية والاجتماعية
للأناضــول فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وذلك ان المنطقـة
الجغرافية التى نشأت فيها الامبراطورية العثمانيه لم تكن جــزيرة
معزولة وسط المحيط ولا كان أهلهـا يشكلون عنصرا متميزا عن
بقية أتراك الاناضول السلجوقى وانما كانوا سواء فى أثناء استقلال

الدولة السلجوقيه أو فى عهد سيادة الايلخانيين ـ يكونون مع بقيه أتراك الاناضول ـ وحدة سياسية واقتصاديه وثقافيه ، نعم لقد كانوا يعيشون على الحدود وكانت ظروفهم ـ لذلك ـ مغايرة لظروف الأتراك فى الداخل ولكن هذه المغايرة لم تكن خاصة بهم فقد كانت قبائل تركية أخرى تعيش كذلك على الحدود ، وفوق ذلك فلم يكن نظامهم الاجتماعى يفترق عن النظم الاجتماعية عند غيرهم من أتراك الأناضول .

قل ان شئت انهم كانوا بدوا أو نصف بدو أو قل انهم كانوا أهل حضر انقطعت بينهم وبين البداوة كل الأسباب فلم يكن الاناضول ـ على أى حال ـ يخلو من قبائل تعيش فى ظروف مشابهة تماما لظروفهم وحتى اذا نحينا ملاحظاتنا هذه جانبا وسلمنا جدلا بصحة نقيضها فان ذلك لا ينفى ضرورة دراسة المشكلة داخل الاطار العام لتاريخ الاناضول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ولقد اخترع المؤرخون العثمانيون القدماء من أصحاب المدائح سلاسل نسب خياليه لسلاطينهم الذين لم يكونوا ينحدرون ـ بغير شك ـ من عائلة ملكيه وحرص هؤلاء المؤرخون ـ لكى يجعلوا من تأسيس الامبراطوريه احدى المعجزات ـ على أن يشرحوه بأسباب خارقة قوامها الأساطير ، ولقد كان من الطبيعى جدا لكتاب الوقائع ، وهم يحاولون كتابة ملحمة لاحدى الأسر أن يعرضوا تاريخ العثمانيين كأنه سلسلة من الأحداث قائمة برأسها ، ولكن

الشيء الذى يدعو الى الدهش هو أن يحتفظ علم التاريخ الحديث الذى ينكر العلل المعجزة والخارقه بنفس الروايات القديمــه مع صبغها صبغه أخرى •

ومهما يكن فلن تفهم المشكلات التى ما زالت غامضة فىالتاريخ العثمانى الا اذا درس هذا التاريخ كما قلت فى مناسبات كثيرة داخل اطار التاريخ التركى العام أو بعبارة أخرى : ان هذه المشكلات لن تحل أو نبحث فى التــاريخ العثمانى باعتباره هو وتاريخ الامارات الأناضوليه الأخرى امتدادا لتاريخ سلاجقة الروم • نعم ان لغموض الذى يحيط بتاريخ هؤلاء السلاجقه هو الذى يحول دون فهم هذه الحقيقة البســيطه ولكن اخراج مشــكلة قيــام الدوله العثمانية من الطريق المسدود الذى وضعت فيه متوقف مع هذا على أن توضــع فى وضعها الصحيح كامتداد للتاريخ السلجوقى، أو لا ، فانها باقية فى مكانها وسيترتب على هذا أن تبقى مسائل أخرى هامة من مسائل التاريخ العثمانى غير قابلة للحل •

ولقــد بينت من قبــل فى أحد أبحــاثى [٣١] كيف أن رامبو ويورجا وشارل ديل وكثيرا من علماء البيزنطيات قد أخذوا ببعض الأفكار الخاطئة الشبيهة بآراء جيبونز فحادوا وضل رأيهم فىمسألة العلاقات الحضارية بين بيزنطة والعثمانيين •

---

(٣١) بيزانس مؤسسة لرينك عثمــانلى مؤســـسة لرى أو زرينه تأثيرى ، تورك حقوق واقتصاد تاريخى مجموعة سى ـ جلد ص ١٦٥ ـ ٣١٣

والآن وقد اصطلحنا على أن يكون هذا المبدأ هو نقطة انطلاقنا ، وبعد أن فرغنا من وضع المسأله فى موضعها فقد تحددت معالم الطريق الى الحل من تلقاء نفسها ، وهى :

اخضاع الوثائق التى بين أيدينا للنقدين الداخلى والخارجى طبقا للتكنيك المعاصر للمنهج التاريخى .

نزع كل صفة واقعية عن الأساطير وأشجار النسب التى اخترعها مدونو التاريخ لغايات معينة وعدم استعمالها كمصادر .

قصر العناية على المسائل الرئيسية ونبذ ما تحيط به الشبهات من أخبار التاريخ السياسى والعسكرى وكذلك الوقائع العسكرية الصغيرة التى لم تحدث تغييرات دائمة .

عدم الاقتصار على كتب الوقائع وتوجيه عناية لا تقل عن عنايتنا بهذه الكتب الى كل صنوف الوثائق التى يمكن أن نعين على حل مشكلات التاريخ الاجتماعى .

دراسه التركيب الطبقى للعناصر التى تشكل ذلك المجتمع وموقف كل عنصر بالتحديد وعوامل قوتهم وضعفهم وأسباب ما كان يقع بينهم من تساند أو تضارب أو ـ على الجملة ـ دراسة التغييرات فى حياتهم الداخلية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر واعتبار ذلك أولى من دراسة ما كان يطرأ على حياتهم من تقلبات سياسية وعسكريه ، ويمكن أن نقول بعبارة أخرى ان علينا أن نصنع

تاريخا تركيبيا لأتراك الأناضـــول يقوم على دراســة مورفولوجيـا مجتمعهم ودراسه تطور نظمه الدينيه والتشريعية والاقتصادية والفنية أكثر من قيامه على دراسة حوادثه السياسيه والعسكرية فبمثل هـذا التركيب وحده وباستخدام كل ما بين أيدينا من المواد يمـكن ان نصل فى مشكلة قيام الدولة العثمانية الى أقرب الحلول من الحقيقة، فان قيل : هل يفى ما بين أيدينا من المصادر كما وكيفا بمثل هـذا العمل التركيبى فان جوابنا بطبيعة الحال هو : لا ، ولكن يجب أن نلاحظ انه ـ على عدم كفايته ـ أكثر مما بين أيدى الذين يعتمدون على الآراء الاسطوريه الواردة فى حوليات التاريخ العثمانى المتأخرة، ومع هذا فلو حاولنا ، بما بين أيدينا من المراجع ، أن نكتب على سبيل المثال ، تقويما سنويا لعهد عثمان كما كان يفعل أى مدون من مدونى التاريخ القدماء لتعذر علينا الأمر لأننا لا نملك أى وسيلة لتحقيق المعلومات غير الجديرة بالثقة التى تمدنا بها الحوليات العثمانية، ولأننا لن نجد عونا على ذلك فى المصادر البيزنطيه أو العـربية أو الوثائق الرسمية أو النقوش ، وسنجد اننا مضطرون الى أن نستبعد بلا تردد مثل هذه المعلومات والتفاصيل التى تحيط بها الشبهات ، ولن يبقى بعد عملية الاستبعاد هذه التى يقضى بها النقد التاريخى الا قليل جدا من الوقائع الجديرة بالثقة •

ولكن المؤرخ ليس بحاجة ككاتب الحوليات الى أن يحيط بكل الأخبار والحوادث التى ترضى فضوله ، وان فى كتب الحوليـات

وسائر الوثائق من الحوادث الفرعية والمكررة وغير ذات البال مايبلغ الآلاف ولكن الجهل بها لا يحول دون ادراك التطور التــاريخى لأى شعب •

وهنا يتجلى الفرق بين التــاريخ القصصى والتاريخ التركيبى ، وليس معنى هذا أننا ننكر الأهمية الكبرى للجهود التى تبــذل فى كتب التاريخ المتبحرة ولكنا نريد أن ننبه الى أن التركيب التاريخى مغاير تماما لركام المواد التاريخية التى لم تخضع للنقد ولم ترتب بحسب قيمتها ولم يفصل مهمها عن غير مهمها •

ان غاية المؤرخ هى أن يعلل للموقف تقفه الجماعة فى زمان ومكان معينين وان يصورها بنشاطها تصويرا حيا أقرب ما يكون الى الحقيقة ولا فرق بين المؤرخ يفعل هذا وبين عالم الحيوانات الحفرية Paleontologiste تقع فى يده بضــع قطــع هامة من العظم فيعيــد بفضلها بناء هيكل حيوان منقرض •

ان قصــدى من تكرار هـــذه المتعــارفات التى هى فى حكم البديهيــات بالنســبة للمؤرخين المعاصرين هــو أن أبين ان المــواد المحدودة التى بين أيدينا يمكن أن تفيد فائدة كبيرة فى حل مشكلة قيام الدولة العثمانية ، ولقد بينت من قبل أن كل الذين اشتغلوا فى هذه المسألة عجزوا حتى الآن عن الافادة من أهم هذه المواد •

وبعـــد أن فرغنا من الحــديث فى هذه المقــدمة عن النقــد والميتودلوجى فسنحاول فى المحاضرتين القادمتين أن نعالج مشــكلة

قيام الدولة العثمانية ولو فى خطوطها العريضة مستفيدين من كل المراجع التى ذكرناها باختصار من قبل .

ولسنا نزعم بهذه التجربة التركيبية الجريئه التى نحاول تطبيقها فى ميدان يكاد يكون غير مطروق حتى الآن أننا حللنا مشكلة قيام الدولة العثمانية حلا نهائيا .. واذا كانت الأعمال التركيبية التى تعتمد على أوثق التفصيلات التحليلية لا تزعم هى نفسها أنها نهائية فلا شك فى أن تجربتى هذه لن تؤدى بنا الى ما يحسن السكوت عليه ، فهى الأولى فى بابها وهى لا تزال ـ فى كثير من نواحيها ـ بحاجة الى أبحاث تحليليه كثيرة ولكن الغاية الرئيسية التى قصدت اليها من هذه المحاضرات هى أن أبين بتركيز وبساطة أننا بحاجة الى أن نطبق فى تاريخ الترك والاسلام فى العصور الوسطى نفس الأصول الجديدة المتبعة منذ القرن التاسع عشر فى مباحث تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، وذلك أننا نستطيع ـ باستثناءات قليلة ـ أن نقرر أن هذا الجزء الهام والمكمل لتاريخ البشرية لم يتخلص حتى الآن رغم جهود الاستشراق الأوربى طوال القرن التاسع عشر من تقاليد كتاب الحوليات فى العصور الوسطى .

القسم الثانى

نظرة فى تاريخ الاناضول السياسى والاجتماعى
فى القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر

اذا أردنا أن نفهم حق الفهم كيف قامت الدولة العثمانية فيجب طبقا لأصول المنهج التاريخي الذى فصلنا فيه القول فى المحاضرة الاولى أن نوجه لدراسة التاريخ الاجتماعى للأناضول فى القرن الثالث عشر من العناية ما لا يقل ان لم يكبر عن عنايتنا بدراسة تاريخه السياسى فى نفس الفترة ذلك بأننا لن نستطيع الوقوف على منشأ القوى المادية والروحية التى خلقت الدولة العثمانية فى القرن الرابع عشر وهيأت لها أسباب التطور السريع ، ولا على منشأ العناصر الأساسية التى قامت عليها تلك الهيئة السياسية الا اذا عرفنا الظروف الاجتماعية لسكان الأناضول فىالقرن الثالث عشر فقد ورث القرن الرابع عشر — مع تغييرات طفيفة بطبيعة الحال — كثيرا من الأوضاع الاجتماعية لأناضول القرن الثالث عشر سواء من ناحية التكون الاتنوغرافى أو من ناحية التشكيلات الصناعية أو المؤسسات الاجتماعية أو النظم الاقتصادية وأنواع النشاط الثقافى ، والواقع أن هذا القرن الثالث عشر — وهو أجدر فترات أناضول العصور الوسطى بالعناية وأحفلها بالحركات السياسية يعتبر — من حيث التطور الاجتماعى — مرحلة من مراحل الانتقال والنشوء امتد أثرها الى القرون التالية وبخاصة الى النصف الأول من القرن الرابع عشر قرن تأسيس الامبراطورية العثمانية ، وقد شهد هذا القرن الثالث

عشر دوله سلاجقة الروم تتسنم الذروة فى ميدانى السياسة والثقافه وشهد ــ بعد الحرب الصليبية الرابعه ــ قيام امبراطوريتين اغريقيتين بالأناضول على أنقاص الامبراطوريه البيزنطيه وهما امبراطوريه نيقيه وامبراطوريه طرابزون ، وشهد المغول يقبضون فعلا على أزمة الحكم فى الأناضول فيتحول الحكم السلجوقى الى ظل تابع ، ورأى عدا ذلك أتراك الأناضـــول يدمجون فى الامبراطـوريه الايلخـانية ، وحكومة القبيله الذهبيـه وهى حليفة الممـاليك (بمصر وسوريا) وعدوة الايلخانيين تحـاول أن تلعب فى الأناضـول دورا سياسيا ، ورأى الامبراطورية البيزنطية تبعث من جديد فى استانبول .

وهكذا يتبين أننا اذا أردنا فهم الظروف السياسيه التى أعدت الأساس ومهدت الطـريق لظهـور العمانيين فى النصف الأول من القرن الرابع عشر فلا بد أن ندرس هذه الظروف بوصفها امتـدادا للقـــرن الثالث عشر ... ولقد كان من المســتحيل أن تقع هذه الأحداث السياسيه الجسيمة فى القرن الثالث عشر ثم لا تكون لهـا بعد ذلك آثار بعيـدة فى كل ظواهر الحياة الاجتماعية ، فقد كان من آثارها مثلا أن تكونت بالأناضول طرف صوفيه أثرت فى الحياة التركية قرونا وكان من آثارها أن وقع التنافس الاقتصادى بين البدو وأهل الحضر متخذا شكل ثورة دينية استطاعت أن تزلزل الدولة السلجوقية وهى فى أوج قوتها .

وسنرى استمرار هـــذه الآثار فى النصف الأول من القرن الرابع عشر بل فيما ولى ذلك من قرون .

ومن أجل هذه الاسباب جميعا سنحاول أن ندرس في اجمال تاريخ الأناضول في القرن الثالث عشر وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر، ولن نوجه عنايتنا في هذه الدراسه الى الناحية السياسيه وحدها ولكن سنوجهها أيضا ، وبمعدل أعلى ، الى النظم الاجتماعية.

١ ـ الأحداث السياسية الكبيرة

بلغت دوله سلاجقة الروم أوجها في النصف الأول من القرن الثالث عشر بعد أن استطاعت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر أن تقضي على الدانشمنديين أقوى خصومها واخطرهم ، وبعد أن تخلصت في نفس الوقت من الامارات المحليه الصغيرة القليلة الأهمية بطبيعتها بأن استأصلت بعضها واستولت على الباقي ..وأيضا بتحويلها دولة أرمينية الصغرى الى دويله تدفع الجزيه وتقدم الجند للمساعدة بعد أن كانت ـ بفضل موقعها الجغرافي وبممالأتها للقوى المتنافسة ـ تحتفظ باستقلالها .

وقد انفتحت أبواب السلاجقة للتجارة الأوربية بعد أن فتح غياث الدين كيخسرو الأول أنطاليا سنة ١٢٠٧ لغايات اقتصادية بحتة وبعد أن فتح عز الدين كيكاوس الأول سينوب سنة ١٢١٤ ، فقد صار للسلاجقه بهذين البلدين منفذان الأول على البحر الابيض والآخر على البحر الاسود فاستطاعوا أن يقيموا بينهم وبين بلاد ذينك البحرين علاقات تجاريه مباشرة .

وكان أكبر حدث فى تاريخ الأناضول السياسى فى بدايه القرن الثالث عشر هو ظهور امبراطوريتين نتيجه لانتهاء الحرب الصليبيه الرابعه : الأولى هى امبراطوريه نيقية وحاضرتها مدينة نيقيه ، والثانية هى الدولة الساحلية التى استطاعت أسرة كومنين بمساعدة تامارا ملكة جورجيا أن تقيمها على البحر الاسود متخذة طرابزون عاصمة لها ولكن تأسيس دولة طرابزون هذه لم يكن له تأثير كبير على مجرى الحوادث التاريخية بالاناضول ، على حين كان تأسيس دولة نيقية حادثا خطيرا .

ويرى أصحاب الدراسات البيزنطية أن امبراطورية نيقية هذه الجديدة كانت تضع الدفاع عن أراضيها الاناضولية فى المكان الأول وأنها كانت مانعا حال دون توسع السلاجقة نحو الغرب فى النصف الاول من القرن الثالث عشر [1] ، ويرى Iorga فى هذا الموضوع أن الدولة السلجوقية كانت مضمحلة أثناء تأسيس امبراطورية نيقية [2] .

ونحن نرفض الرأيين جميعا .

فقد كانت دولة السلاجقة فى المراحل الاولى من تشكل

(١) A. A. Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin Paris 1932 Vol. II., P. 186.

(٢) N. Iorga, Histoire de la vie Byzantine, Bucarest, 1934, Vol. III, P. 103.

امبراطوريه نيقية مشغولة بما بين أمرائها من صدامات مستمرة بسبب أن ولاية العرش لم تكن لها قواعد ثابتة •

وبعد أن استولى غياث الدين كيخسرو الاول على انطاليا ونبت قدمه فى الداخل انقض على تيودور لاسكاريس امبراطور نيقيـــة بتحريض من اليكسى آنج الثالث Alexi Ange III وكانت حجه غياث الدين هى اجلاس الكسى هذا على العرس [٣] ، ولـكن غياث الدين قتل فى الميدان سنة ١٢١٠ •

ولقد أخطأ يورجا حين ذكر أن السلطان القتيل هو عز الدين كيكاوس الأول •

وبعيد ما بين روايه المـــؤرخ الســـلجوقى ابن بيبى وروايه المصادر البيزنطيه عن هذه المعركة فابن بيبى لا يشير مطلقا الى التجاء اليكسى ، ويروى أن الســلطان تذرع بخصومه قديمة وقــرر أن يحارب هذه الدولة الجديدة الواقعة على حدوده الغربية •• والتقى الجيشان بعد أن تجاوز جيش السلطان مدينه آلاشهر التى كانت فى يد الروم ، وفى أول الصدام وقع لاسكاريس من فوق حصانه فمنع السلطان رجاله من قتله •• ورآى الروم ما حـــدث فولوا الادبار وانطلق رجال السلطان من جتســـعهم يجمعون الغنائم ولم يبق مع السلطان أحد حتى من خاصته ، ورأى السلطان جنديا لاتينيا فلم يعبأ به لانه حسبه واحدا من رجاله فانتهز الجندى الفرصة واغتال

---

(٣) يسميه يورجا خطأ عز الدين كيكاوس •

السلطان ولبس ملابسه المزركشة وعاد الى جيشه ، فلما علم الروم بمقتل السلطان تشجعوا وكروا ثانية على الجيش السلجوقى فهزموه ويروى ابن بيبى أيضا أن لاسكاريس تألم لهذا الحادث أشد الألم وأمر بالجندى اللاتينى فعذب حتى تلف .

فلما اعتلى عز الدين كيكاوس الاول عرش السلاجقه أرسل له لاسكاريس هيئة تحمل كثيرا من الهدايا ومعها الامير سيف الدين الجاشينكير الذى كان قد أسر فى تلك المعركه وطلبت السفارة اقرار السلم بين الطرفين فرحب بذلك عز الدين وأوفد الأمير سيف الدين سفيرا ونقل جسد أبيه الى قونيه .

ووقعت الحرب بعـــد ذلك بين عز الدين وأخيه علاء الدين واسترد عز الدين انطاليا ثم اتفق مع امبراطور نيقية وحارب أسرة كومنين فى طرابزون محتجا بأنهم اعتدوا على أراضيه فاستولى منهم على سينوب وفى نفس الوقت حمـــل على أرمينيه الصغرى حمله تأديبيه .

ونلاحظ أن علاء الدين كيقباذ الاول الذى خلف عز الدين كان على وفاق دائما مع الامبراطورين المجاورين له فلم يكد الخطر المغولى يظهر فى الاناضول حتى أحس امبراطور طرابزون ، كمـا أحس امبراطـــور نيقيـــة جان واتاتزس Jean Vatatsés بضرورة الاتفاق مع السلاجقه ضد الخطر المشترك ونلاحظ أيضا أن عز الدين كيكاوس الثانى كان حسن العلاقات بـ (تيودور لاسكاريس الثانى)

فهذه كلها دلائل بينه على أن دولة سلاجقة الاناضول لم تكن تتهدد دوله الروم فى نيقية، ونحن نرى أن فاسيلييف A. A. Vasiliev لم يك مصيبا بدوره حين رأى أن الحرب بين غياث الدين كيخسرو ولاسكاريس الاول صدرت عن رغبة غياث الدين فى التوسع نحو الغرب وذلك أن دوله الروم فى نيقية كانت ترمى من لدن تأسيسها الى أن تسترد استانبول من يد اللاتين والى أن تعيد توحيد الامبراطوريه الممزقة وتبعتها وكانت من أجل ذلك تمد عينيها دائما الى بلاد البلقان فى الناحية الغربيه ، ولم تكن تتطلع فى الاناضول الا الى الاراضى التى كانت تابعة قديما لبيزنطة فى الاجزاء الساحلية وفى جزر بحر ايجه، والحق أن استرداد الروم للأناضول السلجوقى كان أمرا أبعد فى ذلك الوقت من الخيال ، بل ان العالم الغربى الذى كان قد درج من زمن بعيد على أن يعتبر الاناضول « بلدا يحتله الاتراك » كان لا يعرف أناضول القرن الثالث عشر الا على أنه ـ بكل بساطة ـ تركيا .

واذا كان انتصار لاسكاريس الاول على كيخسرو قد أطرب الروم طربا عظيما مع أنه غير ذى بال ولم يؤثر قيد أنملة على الحدود بين البلدين فذلك دليل على أن نيقية كانت فى وضع لا يتلاءم مع القيام بفتوحات نحو الشرق .

وأما دولة سلاجقة الروم فانها ـ على عكس ما قال يورجا تماما ـ قد بلغت غاية القوة والازدهار فى النصف الأول من القرن الثالث

عشر أيام علاء الدين كيقباذ الاول ، وآيه هذا ما حققه فى هـذه الفترة من الاعمال فقد استولت ـ لغايات تجاريه ـ على كثير من المدن الحصينه بالساحل الجنوبى للاناضول مثل أنامور وعلائيه وسيرت جيشا الى ميناء صوغداق وهو ميناء عظيم الاهمية من موانى القرم ، وشنت غارات تأديبية على أرمينية الصغرى ، واستولت فى منـاطق شرق الأناضول على أراض ساسعة وعلى مراكز عظيمة الأهمية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية مثل كختا وجمشكزك cemis gexek وأرزنجان وأرضروم وخلاط ، ووقفت فى مجـــاهدة الدولة التى أقامها جلال الدين خوارزمشاه بآذربيجان وايران بعد فراره أمام الغزو المغولى ، وأقامت فى الداخل كثيرا من المؤسســـات الخيرية والمرافق •

ولم يكن لعلاء الدين من غاية بعد اذ أقام فى وسط الاناضول وشرقه قوة سياسية موحدة ليس لها منافس،وبعد اذ حاول الاستيلاء على أراضى الاناضول الشرقية لانها أوفر غنى من الاراضى الغربية لم يكن له بعد ذلك من غاية الا غاية أسلافه من قبل وهى الاستيلاء على حلب وشمال سوريا •

ومع أنه فشل فى تحقيق هذه الغاية فانه قذف فى قلوب جيرانه الرعب ، واكتسب نفوذا كبيرا حتى لقد استطاع ولده غياث الدين كيخسرو الثانى أن يســتولى ـ رغم ظهــور الخطر المغولى ـ على شمشاط وديار بكر وميافارقين ، وأن يدخل فى طاعته بعض الأمراء

المجاورين ، وأن يرغم الايوبيين فى حلب على الاعتراف بسلطانه •

ويستدل من كل ما تقدم على أن الصـداقه بين السـلاجقة وامبراطوريه نيقية لم تكن وليدة ضعف فى السلاجقة ولكن نتيجة اتجاهين مختلفين فى النشاط السياسى ، فالسلاجقة يمممون وجوههم شطر الشرق وامبراطوريه نيقيه تتجه نحو الغرب أى أن هـذه الصداقة كانت نتيجة طبيعيه لعدم التضارب بين المصالح العليا لكل من الدولتين ، بل لقد بلغ الامر أن كلا منهما كانت تفيد فعلا من وجود الاخرى للمحافظة على التوازن السياسى ولم يجد لديهما من الاسباب ما يدعو الى الاخلال بهذا التوازن السياسى الذى كان مستقرا فى مناطق الحدود السلجوقية البيزنطية من قبل القرن الثالث عشر •

وسنبين بعد قليل عند حديثنا عن النتائج الاتنوغرافيه للغزو المغولى كيف اختل هذا التوازن فى القرن الرابع عشر فى غير صالح البيزنطيين فقد كان الغزو المغولى للاناضول فى القرن الثالث عشر هو أكبر الحوادث التاريخية فى الاناضول لا من الناحية السياسيـة فقط ولكن من الناحية الاجتماعيه أيضا •

وكان هذا الخطر الذى ظهر على حدود الاناضول فى عهـد علاء الدين كيقباذ الاول فارتاعت له قلوب الترك والروم على السواء قد أمكن تجنبه بسياسة الحيطة والحذر التى اتبعها علاء الدين حتى لقد استطاع كيخسرو الثانى بفضل ابتعاد هذا الخطر أن يقـوم بفتوحات جديدة موفقه فى المناطق الشرقية ولكن فساد الادارة فى

الداخل ، والغارات المخربه التى سنتها القبائل التركيه والخوارزميه على الحدود السلجوقية أثناء خروجها من الاناضـــول بعد أن كان علاء الدين كيقباد قد أسكنها به هى وقادتها بعد وفاة جلال الدين خوارزمشاه ، والمعارك التى اضطر كيخسرو الى خوضها ضد هذه القبائل ، والاضمحلال الذى يصاحب بالضرورة كل فتوحات لا خطه لها ولا هدف ، كل أولئك قد زلزل كيان الدوله السلجوقيــه رغم الازدهار الذى احتفظت به فى الظاهر •

وزاد الطين بلة أن الثورة البابائية التى سنتناولها بعد قليل ، اندلعت فى نفس الوقت ولم يســـتطع كيخسرو قمعهـــا الا بشق النفس •

وبينما الموقف كذلك ، نراءى الخطر المغولى من جديد ولكن على نحو لا يمكن تجنبه كما حدث من قبل ، ففى سنة ١٢٤٢ استولى المغول على أرضروم وخربوها ، وخـــرج السلطان السلجوقى للقاء الغزو ومعه ـ عدا جيشه ـ قوة كبيرة جمعها من حلفائه وتابعيه ولكن المغول دحروا هذا الجيش غير المتجانس بالقرب من الجبل الاقرع سنه ١٢٤٣ واســـتولى المغول على سيواس وقيصريه وخربوهما ثم استولوا فى عودتهم على أرزنجان •• وانسحبوا وكان لهذه المعركة أثر حاسم فى مقدرات الدولة السلجوقية فقد وقع الاناضول بعدها فى قبضة المغول ولم يبق للسلطان السلجوقى بعد عقد الصلح الذى نص فيه على جزيه سنوية باهظة الا سلطة نظرية ، ونصف استقلال ،

وخضعت الحياة السياسية الاناضوليه بعد ذلك لارادة الحكام المغول، وكان أمراء السلاجقة يتولون الحكم فرادى أو مثانى أو أكثر من ذلك بيرالغ من حـــكام المغول ، وكان من رجالات الدولة الذين اكتسبوا ثقة المغول وقبضوا على زمام الحكومة السلجوقية فعلا من يستمتعون بنفوذ اعظم من نفوذ السلاطين الســلاجقة ، وكان قواد جيش الاحتلال المغولى هم الحكام الحقيقيين للبلاد السلجوقية كلها وهم الرقبـــاء على ادارة السلاجقة ، وكانت مصروفات الســـلطان السلجوقى والأمراء وتكاليف جيش الاحتلال وعلية القوم من المغول، وارسال الاتاوة السنويه والهـدايا للقان ، كان كل أولئـك يزيد المشكلات المالية تفاقما وكان الناس يضيقون ذرعا ونفسا بالضرائب المتزايدة ، وكانت الاجهزة الاداريه المتراكبة المتداخلة فاسدهالنظام، تعمل دائما ضد مصلحه الشعب •

وبالاضـــافة الى ذلك كانت الفتن تســـتعر بين ســـلاطين السلاجقة وأمرائهم فيسعى بعضهم ببعض عند المغول وكان يحدث أن يقع الصـــدام بين رجالات المغول بالاناضــول أو ينتقضوا على خاقانهم •

وكان هذا كله يؤدى الى معارك حربية تعقبها حملات تأديبية•

هذه هى الحوادث التى حفل بها تاريخ الاناضول فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر والاول من القرن الرابع عشر •

وقبل أن تتأزم الأمور فى حكم الوزيرالسلجوقى الحازم معين

الدين الباروناه استصرخ بعض أهالى الاناضـول الظاهر بيبرس ، فلبى النداء ودخل الاناضــول ليرفع عن مسلميه نير الحكم الوثنى المغولى ، وتقدم حتى بلغ قيصريه واوقع باحد الجيوش المغوليــه هزيمة نكراء فى البستين ، ولكن الاناضـول لم ينتفض على المغول كما كان يتوقع بيبرس ولم ير من أهله ما كان ينتظــر من العون واضطر ـ ازاء خطورة الموقف ـ أن يرجع •• ثم هبط الايلخان آباقا الاناضول على رأس جيش جرار فأهلك آلاف النـاس بحجة تعاونهم مع المصريين وآل أمر معين الدين نفسه الى الهلاك،وتحولت حال الاناضول الى أسوأ حال من الفوضى والاضطراب ، ورغم فشل بيبرس كانت الامبراطــوريه المملوكيـة فى مصر والشــام ترقب عن كثب أمور الاناضول بحكم موقعها الجغرافى من ناحيه وبسبب سياستها المعاديه لدولة الايلخانيين من ناحية أخرى ، ويمكن الظن بان المماليك كانت لهم ـ عن قرب أو عن بعد ـ أياد فى كل ما وقع بالاناضول من انتفاضات على الايلخانيين ، فقد كان الثوار من أتباع سلامش قائد المغول بالاناضول فى أواخر القرن الثالث عشر ، كما كان الثوار من أتباع دميرداش فى القرن الرابع عشر ينتظرون جميعا العون من المماليك •

ويمكن الظن أيضا بأن دولة القبيله الذهبيه لم تكن بمنأى عن أحداث الاناضول ، ولا بعيدة عن هذه الثورات ، ولقد كانت هــذه الدولة التى بدأنا ندرك حقيقتها بفضل الابحاث التى تمت فى السنين

الاخيرة حليفا طبيعيا للمماليك ، وكانت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر تضغط ضغطا مؤثرا على البلقان وعلى سياسة بيزنطه •

ومن المحتمـل أن يكون التتار الآق طاو Ak-Tav ـ الذين انثالوا على الاناضول بطريق غاليبولى ليساعدوا البيزنطيين ضد قادة المغول ثم قفلوا مسرعين الى البلقان بعد أن انهزموا يحتمل كثيرا أن يكونوا قوة عسكرية أرسلها النوغاى ليساعد بيزنطه حين عدا مغول الأناضول على أراضيها بالجنوب الغربى منطلقين من ارمكليسى على البحر الاسود •

وعلى أى حال فقد كان الاضطراب يسود كل النواحى ، ففى داخـــل القبيلة الذهبية نشب القتال بين النوغاى وطوقطاى ، وفى المعركة الثانية لم يخسر النوغاى العجوز الذى طالما بسط نفوذه على البلقان الحرب فقط ولكنه قتل سنة ١٣٠٠ •

ولم يكد امبراطور بيزنطة يتخلص من نفوذ النوغاى حتى بدا له أن يصانع الايلخانيين ليستريح من غاراتهم التى استؤنفت فى ذلك الوقت على الحدود ، بعد أن كانت بيزنطه قد استراحت منها أثناء ثورة سلامش ثم فى حكم الايلخان غازان الذى بسط عليها حمايته، وبعد وفاة النوغاى رجعت الى الاناضول كتلة من الترك قوامها عشرة آلاف بيت كانت قد خرجت برياسة صـارى صالتيق الى دوبروجة لتلحق بالسلطان عز الدين فى سـنة ١٢٦٣ (أى فى الوقت الذى كانت فيه بيزنطه مضطرة الى مصانعة المماليك والقبيلة الذهبيـــة)

واستقرت هذه الكتلة التركيه التى قادها فى العودة أجه خليل فى منطقة قره سى •

وستلقى الابحاث القادمة أضواء أكثر على الادوار التى لعبها المماليك والقبيله الذهبية فى الاناضول •

والخلاصة ان الادارة العسكريه المغوليه لم تستطع رغم سدتها وتضييقها فى آواحـر القرن النالت عتسر ، ورغم توالى حمـلاتها التأديبية أن تفوم النظام فى الاناضـول بل كان حكم المغول المطلق لا يكاد يحس فى المناطق الجبليـة التى تستطيع عند الضرورة أن تدافع عن نفسها ولا فى مناطق الحدود البعيدة عن الطرق الرئيسيه •
وبينما كانت دولة سلاجقة الروم آخذة فى الاضمحلال بتأثير الظروف الداخليه والخارجية التى بيناها ، كانت قوى تركيه جديدة آخذة فى التبلور فى المناطق الملائمة بالأناضول وأقدم هذه القوى وأشدها بأسا هى دولة أبناء قرمان التى قامت غربى كيليكيا واتخذت أرمناك عاصمة لها ، وقد فتح بلادها علاء الدين كيقباذ الاول •

وكان منشأ هـذه القوة من الاتحاد بين القبـائل التركية التى كانت تقطن من قديم فى المناطق الجبلية بكيليكيا ، والعناصر التركية التى نقلها كيقباد الى هناك • وفى سنة ١٢٦١ زحفت هذه الامارة على قونية بحجة الدفاع عن عز الدين كيكاوس الذى لجأ الى اسنانبول نتيجة لدسائس معين الدين بروانه ، ولكنها انهزمت أمام القـوات السلجوقية والمغولية، ومع هذا فان أولاد خاطر الذين كانوا يظاهرون

القرمانيين استطاعوا بفضل مساعدة المماليك أن يوقعوا بعـــدد من الجيوش السلجوقية الموجهه اليهم .

وفى سنة١٢٧٧استغل القرمانيون الاضطراب السائد فى البلاد واستولوا على قونية وأجلسوا على العرش مغامرا دعيا يزعم انه ابن عز الدين كيكاوس ولكنهم هزموا أيضا على يد السلاجقة والمغول ، وعلى الرغم من هذه الهزائم التأديبية المتواليه فان القرمانيين الدين لم ينقطع عنهـــم عون المصريين كانوا يزدادون قوة ونفوذا ، وقد زعموا بعد سيطرتهم على قونية أنهم ورثه الامبراطوريه السلجوقيه، واستولوا على قونيه مرتين فى بدايهالقرن الرابع عشر ولكنهمطردوا منها فى المرة الاولى على يد الامير جوبان أمير أمراء الايلخانيين فى سنة ١٣١٥ وفى المرة الثانيه على يد ابنه دميرداس حاكم الاناضول فى سنة ١٣٢٠ ،ولكن ما ان فر دميرداش هـــذا الى مصر وضعف الحكم الايلخانى حتى عظم شأن هذه الامارة التى كانت قونية قـد صارت عاصمة لها ، وأصبحت دولة قوية .

ومن القوى التى نجمت على التخوم الغربية للاناضـــول فى النصف الثانى من القرن الثـــالث عشر امارة أولاد كرميان ، وقد ظهرت بتأثير عوامل كثيرة تمخض عنها الاحتلال المغولى على يد عدد من رؤساء القبائل التركية يحتمل انهم ينتمون الى بطن أفشار من البطون الغزية .

وكان هذا البطن قد غادر مناطق فارس وكرمان ، وتبع ــ فيما

يظن ـ جلال الدين خوارزمشاه حتى وصل الى الغرب ، وتوقف قليلا فى منطقه ملطية بعد موت جلال الدين ، ثم ألقى العصا بعد ذلك فى منطقة كوتاهية •

ويذكرنا قيام هذه الامارة بقيام اماره القرمانيين فما ان تسلطن غياث الدين مسعود الثانى بعد اعدام كيكاوس الثالث على يد المغول سنه ١٢٨٣ حتى ثار الكرمانيـون بحجه الثأر للسلطان القتيل وهاجموا فى سنه ١٢٨٦ الأراضى الخاضعة مباشرة للسلاجقة والمغول والواقعة شرقى أراضيهم •

وخرج اليهم مسعود الثانى فى حملة تأديبية مركبه من المغول والسلاجقة وانتصر عليهم فى أول الأمر ولكنهم انقضوا عليه أثناء عودته فبددوا جيشه •

ومع أنه عاد اليهم بعد عام فأوقع بهم فانهم هاجموه أثناء عودته أيضا •

وشرع الطرفان فى عقد معاهـدة ولكن حبط المشروع وبقى الصراع بينهما حتى سنة ١٢٩٠ [٤] ثم عقدت بعد ذلك معاهدة بين الكرمانيين من ناحية والسلاجقة أو ـ بتعبير أوضح ـ الايلخانيين سادة السلاجقة من ناحيـة أخرى • ويظن أن أنقرة وقعت فى يد

---

(٤) هذا بالنظر الى المعلومات الجديدة الواردة فى سلجوقنامة (المكتبة الأهلية بباريس) الملحق الفـارسى (1553) وانظر أيضا (كوتاهية شهرى) لاسماعيل حقى استانبول سنة ١٩٣٢ •

الكرميانيين ســـنه ١٢٩٩ . ويظن أيضا أن الكرميانيين لم يكادوا يفرغون من هذه المحنة الشرقية حتى اتجهوا بكل قوتهم الى أراضى بيزنطة وأخذوا يوسعون حدودهم على حسابها وفى سنة ١٣١٤ حين جاء أمير أمراء الايلخانيين المشهور جوبان بك على رأس جيش كبير ليسنولى على الاناضول مل أمراء الأسرة الكرميانية، وأصحاب القدرة من الأمراء الداخلين فى طاعنهم بين يديه وقدموا له الهدايا وأعلنوا دخولهم فى طاعة الايلخانيين .

وتنص كل مصادر القرن الرابع عشر التاريخية على أن امارة كرميان كانت ذات بأس وخطـــورة أذعنت لهــا كثير من امارات الأناضول وخافتها ، بل تنص على أن بيزنطة كانت تدفع لها جزية سنوية .

ولقــد كانت امارة أولاد آيدين فى يونيا ، وامارة اينانج فى لاذق ومثلهما ـ كما يلوح لنا ـ امارة صــاروخان فى ليديا وامارة فراسى (التى أسسها بعـــض أمراء الكرميانيين) فى ميسيا ، كانت هذه الامارات جميعا ـ كما حاولت أن أبين من قبل ـ تابعة ـ فى دور التكون على الأقل ـ للكرميانيين .

ولقد كان أولاد صاحب آتا فى قره حصار مضطرين ـ فى سبيل المحافظة على وجودهم ـ الى الاعتماد على الكرميانيين حتى لقد دخلوا من أجل ذلك فى طاعتهم ، وفى بيسيديا لم يجد أولاد حميد

بدا من أن يعتمدوا بدورهم على هؤلاء الكرميانيين لكيلا يغير عليهم القرمانيون •

ويمكن القول بأن هذه الدولة التى يفهم من المصادر البيزنطية أنها كانت تحكم امارات غرب الاناضول فيالنصف الاول من القرن الرابع عشر قد مدت حدودها شرقا حتى أنقرة وأنها ملكت حينا من الدهر أجزاء من بافلاجونيا وعندى أن أمور بك حاكم بافلاجونيا الذى تذكر المصادر البيزنطية أنه كان يحكم الأراضى الممتدة من مصب نهر سقاريا الى أراضى امبراطورية طرابزون والذى كان فى صراع دائم مع الروم لابد أن يكون هو صهر أسرة كرميان الذى ورد ذكره فى نقش خاص بها •

واذا صح هذا الفرض الذى لم يظهر حتى الآن ما ينقضه فاننا نستطيع أن نتصور الى أى مدى كانت منطقة نفوذ دوله كرميان واسعة فى بداية القرن الرابع عشر •

فاذا ذكرنا من بين التشكلات السياسية التى بدأت تتبلور فى الاناضول أواخر القرن الثالث عشر امارتى أولاد حميد وأولاد أشرف فى بيسيديا ثم أولاد جاندار فى بافلاجونيا نكون قد أتممنا ذكر التشكلات السياسية الهامه فى تلك الحقبة ومع أن حدود هذه الامارة الاخيرة قد اتسعت فى عهد دوندار بك حفيد مؤسسها الأمير السلجوقى حميد بك (الذى اتخذ عاصمته فى أكرى) فانها استؤصلت على يد دميرداش والى الاناضول ولم تبعث الا بعد أن فر

دميرداش الى مصر فاستولت حينذاك على الأراضى التى كانت من قبل فى يد أولاد أشرف ، وكانت اماره تكه فى ليكيا تابعة هى الأخرى لفرع من فروع السلاجقة كما كان أحد قواد السلاجقه أيضا هو الذى أسس امارة بكشهرى وامارة أولاد أشرف التى تحدق بهـا وعلى أى حال فان هذه الامارات الصغيرة التىوجدت جنبا الى جنب مع الامارات الكبيرة كأمارتى القـــرمانيين والكرميانيين لم تكن لها أدوار تاريخية خطيرة •

وأما دولة أولاد جاندار التى كانت تحـكم بافلاجونيا وقسما كبيرا من الجزء الساحلى بشمال الاناضـــول فانها لم تضرب العمله باسمها الا بعد وفاه الايلخان أبى سعيد بهادر ولـكنها كانت تزاول السياسة بمهارة حتى لتعد من بين القوى السياسيه الهامة فى النصف الاول من القرن الرابع عشر وتدل هـذه البيانات على مدى الضيق الذى بلغته أراضى الايلخانيين ، والســـلاجقة الخاضـعين لهم فى الاناضول فى أواخر القرن الثالث عشر •

ولا شك فى أن التوسل الى اصلاح الاوضاع فى الاناضـــول بانشاء منصب «ولاية الاناضول» بعد اعتلاء أولجايتو خدابنده العرش يدل على ما كان يساور الدولة الايلخانية من قلق ازاء هذا الاقليم ، على أن النظـام قد استتب به مدة بمجىء الأمير جوبان للاصــــلاح وبوصول دميرداش بن أبى سعيد على رأس قوة كبيرة •

وقد اكتسب دميرداش محبة الشعب بفضـــل ادارته العـادلة

الرحيمة رغم قسوته على المتغلبة ولكنه كان يحـــاول أن يلعب في الاناضول دور المهدي المنتظر مستغلا في ذلك مساعدة مصر ، فخرج على أبيه ، ولكن أباه هزمه ، ثم عفا عنه وأقامه في منصبه من جديد، ومع هذا اضــــطر دميرداش أن يلجأ الى مصر بعــــد مقتل أبيه ، واضطربت أمور الاناضول من جديد في سنة ١٣٢٧ ، ووقعت قونية في تلك الأثناء نهائيا في يد القرمانيين •

ومهما يكن من أمر فان في أنقرة نقشا يحمـــل تاريخ ١٣٣٠ وهو يدل على أن نفوذ الايلخانيين كان لايزال ممتدا في ذلك الوقت الى أنقرة ، ولكنه على أي حال كان قد قصر على وسط الاناضــول وشرقه وكانت أهم المناطق الساحلية في الجنوب والغرب قد دخلت كما بينا من قبل في قبضة الامارات التركمانية •

وأظن أن هذه البيانات الموجزة التي قدمت كافية للتدليل على أن هذه الامارات لم تكن تشكلات سياسية نجمت فجــأة في أوائل القرن الرابع عشر على أنقاض الدولة السلجوقية المنقرضة كما كان يظن ولكنها قوى محلية أفادت من تفكك الادارة الايلخانية وتسامحها فظهرت بالتدريج في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وكانت أدوارها التاريخية تطول أو تقصر وتعظم أو تضؤل بحسب مواقعها الجغرافية من ناحية وبحسب قدرة حكامها من ناحية أخرى •

ومن بين هذه الامارات امارات تأسست ثم توسعت بفضــــل ما استولت عليه من بيزنطيه التي كانت الكوارث الداخلية والخارجية

تسرع بهـا الى الانهيـار وذلك كامارات كرميان ومنتشـا وآيدين وصاروخان وقراسى وعثمانلى •

ويلاحظ أنه لم يكن فى وسع الامارات غير الواقعة على الحدود أن تتطور مثـل تطور امارات الحدود ، ومن ذلك مثلا أن امارة كرميان ـ مع أنها تشكيل سياسى قوى ـ عجزت عن التقدم والنمو حين تحولت الى دولة داخليه نتيجة لما أحاط بها من التشـكلات السياسية الجديدة التى أقامها قادة من الكرميانيين أنفسهم ، ونتيجة أيضا لتضييق القرمانيين •

ولسنا نقصد هنا أن نبين عوامل الرقى والانحطاط فى امارات الأناضول المختلفة ولكن نريد التدليل على أن امارات الحدود ـ ومن بينها امارة آل عثمان ـ كانت أوفر نصيبا من عوامل النمو والتطور من امارات الداخل •

ونظن ألا داعى لذكر الأحداث السياسية الكبيرة التى وقعت فى شرق الأناضول بعد اضمحلال دولة السـلاجقة وسقوطها لأن التطور التاريخى فى غرب الاناضول ظل زمانا طويلا لا يتأثر برد فعل ما يحدث فى تلك المناطق •

ولا نرى داعيـا لذكر الظروف الداخليـة والخارجيـة للامبراطوريه البيزنطية فى النصف الأخير من القرن الثـالث عشر والأول من القرن الرابع عشر لأن هذه الظروف معروفة فى خطوطها العريضة على الأقل •

ومن هنا فلن ندخل فى التفرعات التاريخية الدقيقه ولكن سنحاول أن نبين فى ايجاز مقومات الحياه الداخلية لذلك المجتمع التركى متناولين النواحى الانتوغرافيه والتشريعية والاقتصادية والدينية والثقافية •

٢ ـ العوامل الانتوغرافية

ليس من السهل أن نرسم الخطوط العامة لملامح الاناضول الانتوغرافية وأن نبين أحوال سكانه لا قبل الغزو المغولى ولا بعده لأن شيئا لم يكتب فى هذا الباب ولو على سبيل المحاولة ، ولكن لما لم يكن بد لتاريخ هذه الحقبة من الالمام بهذه الدراسة الاتنوغرافية الماما أى الماما فسنعرض هنا النتائج التى يمكن استنباطها من الدراسة المقارنة للوثائق التاريخيه والجغرافية من ناحية والمعلومات الطوبونيمية من ناحية أخرى •

كونت عشائر تركية كثيرة وفدت على الأناضول قبل الغزو المغولى وبعده قرى فى المناطق التى أسكنت فيها ، وكانت هذه العشائر تحمل الى مواطنها الجديدة أسماء كثير من القرى والجبال والأنهار الموجوده بالاماكن التى كانت تعيش فيها من قبل •

ولا شك فى أن دراسة هذه الأسماء التى ما زالت موجودة فى الأناضول حتى الآن دراسة منهجية تستعان فيها الدراسات اللغوية والتاريخية ، ستوضح هذه المشكلة التى لا نقوى على حلها بالوثائق وحدها •

ولقد بدأ اسكان الكتل التركيه الكنيفة التي أخذت تنثال على الاناضول تحت حماية السلاجقه الكبار بعد انتصار ملاذكرد يتخذ سكلا منهجيا بعد اعتلاء ملكشاه العرش بوجه خاص ٠٠فبأمر سليمان الذى يعتبر مؤسس دولة سلاجقة الروم أسكنت القبائل التركيه فى استبس وســـط الاناضول بل كانت هناك الى ذلك تحـــركات نحو المناطق الساحلية فى الشمال الغربى والجنوب الشرقى ولقـــد كان جزء كبير من جماعات الغز ــ التي لا تكاد تعد والتى تسكن آسيا الوسطى وبخاصة فى الأراضى الواقعة سمال سيحون بين بحر ارال وبحر قزوين ــ قد أقام فى ايران بعـــد الانتصـــارات الأولى التى أحرزها السلاجقه ، وكان جزء آخر قد تبع التوسع السلجوقى نحو الغرب آملا أن يجد أرضا خالية تهيىء له ظروفا أحسن للعيش ٠

واذا كان فتح الاناضول لا يعتبر غزوة خاطفة ولا حـــــركة حربية ولكن نوعا من الاسكان التخطيطى فان ذلك يرجع قبل كل شيء الى هذه الهجرة التركية الكثيفة المستمرة التى بدأت من آسيا الوسطى ٠

ولقد كان السلاجقة الذين تمثلوا سريعا ما تخلف من النظم الاداريه عن الســـامانيين والغزنويين وأسسوا امبراطورية محكمـــة النظام فى ايران يحرصون على ألا يبقى هذا السيل الجارف المتدفق من جنوب بحر الخزر حبيسا فوق الهضبة الايرانية لانه كان كفيلا بهدم النظام الاجتماعى والاقتصادى فى ايران الغنية وقتذاك ٠٠ أى

انه كان كفيلا بأن يزلزل الامبراطورية ، ولقدكانت فتوحات طغرل وألب أرسلان ثم فتوحات سليمان بخاصة تحسن توجيه هذا السيل من المهاجرين ولقد استمرت هذه الهجرات طوال القرن الحادى عشر ثم استمرت بكثافة أقل فى السنين الاولى من القرن الثانى عشر .

وكانت الدوله السلجوقية تعمد فى عملية التوطين هذه الى أكبر العشائر وأقواها فتقسمها أقساما كثيرة وتسكنها فى أماكن ناء بعضها عن بعض دفعا لخطر العصيان الذى يمكن أن يعلنه أى تكتل اتنوغرافى قوى بتدبير من رياسته الوراثية،ولا شك فى أنالسلاجقة كانوا يرمون بتحطيم التساند القبلى الى تمهيد الطريق أمام التكون القومى تحقيقا لصالح الأسرة السلجوقية فقد كانت هذه الأسرة جربت فى أيام فتوحاتها الأولى بالأناضول المشكلات التى يمكن أن تجلبها الكتل الاتنوغرافية الموحدة تحت قيادة رؤسائها .

وان ما نصادفه اليوم فى الاناضول من وجود قرى متباعدة تحمل اسما واحدا من أسماء البطون الغزية مثل قنق وأفشاروبايندر وسالور وبايات وجبنى وغير ذلك انما هو من نتائج هذه السياسة السلجوقية التى يمكن أن نسميها « سياسة التفتيت ثم التوطين » .

واذا كان لهذه الظاهرة عوامل أخرى فان العامل الاول هو هذه السياسة من سياسات السلاجقة .

ومع أن هذه الكتل التى وردت على الأناضول بعد الفتح

السلجوقى وتوطنته كانت تضم كتلا من القارلوق والقالاج والقبجاق فقد كانت الكتلة الغزية أكثف الكتل جميعا،وقد التقت فى الاناضول بكتل تركية أخرى من البجنك والغز مسيحية ووثنية كانت بيزنطة قد استقدمتها من الروملى ووطنتها على الحدود .

ولا شك مطلقا فى أن الاناضول فد خسر كثيرا من سكانه بما امتلأ به القرن الثانى عشر من حروب لاتكاد تنقطع : صليبيةوتركية بيزنطية ، وداخلية بين رؤساء الترك ولكن لم تكن العناصر التركية وحدها هى التى مسها الضر من جراء هـذه الحروب ففد خسرت عناصر أخرى تدفقت على الاناضـول من أنحاء العالم الاسـلامى يحدوها حب المغامرة والطمع فى الرزق ، وخسرت كذلك العناصر الاناضولية القديمة التى كانت الكنيسة الارثوذكسية تحاول ادخالها فى مذهبها والعناصر اليونانية التى كانت كثيفة فى المناطق الساحلية بخاصة .

ولقد روى أبو الفدا نقلا عن مصدر يرجع من غـير شك الى ما قبل الغزو المغولى أن خلقا من التركمان قوامهم ألفا خيمة كانوا يسكنون شمال غرب انطاليا وفى جبال ديكزلى وبجوارها أى بالقرب من منطقة مندريس (٥) .

وعلى أى حال فاننا نستطيع ـ اذا استثنينا مناطق غرب الاناضول

---

(٥) Guyard. Geographie d'ahoulféda, t II, seconde partie, paris 1883, P. 134.

والبلاد الساحلية ـ أن نقرر أن الاناضول كان قد تترك الى حـــد كبير فى أواخر القرن الثانى عشر بفضل كتل من الترك أكثف من الكتل التركية التى كانت تقطن شمال ســوريه والعراق والجزيرة وايران وأذربيجان •

واذا كان ظهور المغول قد عمل على زيادة الهجرة فى المناطق التى ذكرناها فانه عمل على زيادة كثافة العنصر التركى الاســلامى فى الاناضول الذى كان قد فتح حديثا •• لأن هذا الاناضول يقع فى أقصى الغرب من العالم الاسلامى كأنه بمنجى من الخطر •

وعدا عـــدد كبير من العشائر البدوية التى تعرضت للغــزو المغولى فقد خص الاناضول بنسبة عالية من القرويين والمدنيين تمكنوا ـ لأن ثرواتهم منقولة ـ من أن يهاجروا وكان من بينهم تجار أغنياء ومفكرون وفنانون ودراويش بوهيميون •

وبالاضافة الى موقع الاناضول (الذى جعل منه مهجرا ملائما) فقد كان سلاطين الســــلاجقة ما زالوا محافظين عــلى نفوذ الأسرة السلجوقية فكان الاناضول فى ذلك الوقت بلدا اسلاميا معموراسخاء رخاء مستكملا لشرائط الحياة (٦) •

ولقد عرفنا أن عددا غير قليــــل من عشــائر قانكلى والقبجاق

---

(٦) توجد فى المصادر المختلفة الخاصة بهذه الفترة اشارات كثيرة تؤيد أفكارنا هذه •

المنسوبة الى جلال الدين خوارزمشاه قد وفدت على الاناضول تحت قيادة رؤسائها بعد انهيار الدولة الخوارزمشاهيه وبخاصة بعد وفاة جلال الدين ، وأنها كانت عملت فى خدمة علاء الدين كيقباد الاول ثم خرجت مغاضبه من سوء ادارة كخسرو الثانى وخربت كل ما صادفها فى طريقها الى الحدود .

ولكن الدراسات الطوبونيمية تدل على أن قسما من هؤلاء الخوارزمشاهية قد بقى وتوطن الاناضول .

وبعد هذه الهجرات الاولى التى كانت فرارا أمام الغزو المغولى وردت على الأناضول هجرات جديدة بعد أن استولى عليه الايلخانيون وأدخلوا السلاجقة فى طاعتهم .

فقد كان ارسال القوات العسكرية المغولية الى الاناضول من حين الى حين يؤدى الى أن تتوطن عشائر تركية ومغولية فى مناطق مختلفة لأن القوات التى كانت ترسل كحاميات عسكرية كانت ترد على الاناضول لتقطع الاراضى ولتتوطن فيه بقضها وقضيضها ونسائها وأطفالها .

وعدا هؤلاء فقد تحركت من الشرق قبل هولاكو مؤسس الدولة الايلخانية قبائل كبيرة مغوليه وتركية حتى بلغت اذربيجان وايران وشرق الاناضول حتى اذا كانت سنة ١٢٥٣ جاء هولاكو نفسه على رأس جماعة تبلغ مائتى ألف خيمة وهى تقدر تقريبا

يمليون نفس ، وفوق هذا وذاك فقد التحقت بالايلخانيين فى أزمنة مختلفة عناصر كثيرة من امبراطوريتى جغتاى وجوجى •

وفى عهد القان أركون (١٢٨٤ ـ ١٢٩١) نقلت كتلة كبيرة من تركمان الآق قويونلية من آسيا الوسطى الى أذربيجان وشرق الاناضول ، ويفهم من الدراسات التاريخية والطوبونيمية أن قسما كبيرا من هذه الكتل جميعا قد توطن الأناضول •

وبعدمحاولة بيبرس احتلال الاناضول بدأ الايلخانيون يوطنون يه العشائر المغولية التركية لغايات عسكرية •

ولقد ذكرت المصادر التاريخية أن كتلا تنتمى الى سبع قبائل مغولية وتركية قد وطنت فى أماكن مختلفة ولكن لم يرد من أسماء هذه القبائل ولا أسماء الأماكن التى وطنت بها الا ثلاثة ففى منطقة أقسراى وقيصرية وقونية وطن قوم من البيسووت Bisvut ، وفى ناحية سيواس وطن قوم من الأويغور وفى منطقة أنقره واسكيشهر وكوتاهية وطن قوم من الجاودار وكان للبيسووت والأويغور عشرة آلاف رجل مدججين بالسلاح ، وكان للجاودار ثلاثون ألفا(٧) ، ويؤخذ من المصادر التاريخية أيضا أن قبائل أخرى تركية مغولية

---

(٧) طبقا لما ورد فى جامع التواريخ لرشيد الدين وفى جامع الدول لمنجم باشى وفى وقائعنامه لشكارى وما شابه ذلك من المصادر •

مثل صاماكار Samagar وجاى قازان وآلاكـوز وباريمباى كانت ذات نشاط فعال فى وسط الأناضول حتى القرن الرابعشر[٨] الى درجـــة أن الباريمباى هؤلاء قد أقاموا بعض الوقت امارة فى ديار بكر[٩] .

وأما القبائل التى يرد ذكرها كثيرا فى تاريخ القرن الرابع عشر والخامس عشر مثل قبائل طورغود وورساق ومثل القرة تاتار الذين نقلهم تيمور لنك ثانية الى الشرق فانها كلهــا من الجماعات التركية المغولية القوية التى وفدت على الأناضول فى عهد الايلخانيين

وتدل الدراسات الطوبونيمية على أن قبائل غير هؤلاء جميعـا قد توطنت الاناضول وأن منها قبائل كانت تأتى بطريق قافقاسيا ثم تهبط جنوبا،وقبائل كانت تأتى بطريق جنوب روسيا ثم تعبر البحر.

ولما كانت هذه العشــائر قد وفدت على الاناضـــول فى عهد الايلخانيين فان المصادر تذكرها عامة باسم المغول ولكن الابحـــاث الانتروبولوجية والأسماء الاتنوغرافية تدل على أن قسما كبيرا منهــا كان تركيا .

وقد تتركت العناصر المغولية سريعا وبسهولة وسط الأغلبيـــة التركية بالاناضول حتى اذا ما دالت دولة الايلخانيين دخلت هــذه

---

(٨) بزم ورزم للاستراباذى استانبول ١٩٢٨ .

(٩) سننشر بحثا عن العناصر الاتنوغرافية التى وجدت فى الاناضول بعد الغزو المغولى .

العناصر بحسب أماكنها الجغرافية فى خدمة الامارات المختلفة ولقد أيدت المصادر الغربية أن المغول كانوا يوجدون بخاصة فى جيوش القرمانيين (١٠) ٠

وتدل هذه البيانات جميعا على أن الكتل التركية المعوليه الكثيفه التى تدفقت على الاناضول بعد ظهور المغول ثم ازدادت بخاصه بعد قيـام الحكم الايلخانى فيه ، قد زادت أغلبيـة السكان الترك فى الاناضول ٠

واذا قارنا ما ورد فى المصادر التاريخية والجغرافية التى ترجع الى بداية القرن الرابع عشر بالمعلومات التى أوردها ماركو بولو عن الوضع الاتنوغرافى فى أناضول القرن الثالث عشر أدركنا الى أى حـد قويت الاكثرية التركية الاسـلامية فيما لا يزيد عن نصف قرن (١١) ٠

ولقد كانت العشـائر البـدوية الجديدة التى وطنتها الادارة الايلخانية فى شرق الاناضول ووسطه ترغم العشائر التركية القديمة على الانسحاب الى المناطق الجبلية البعيدة عن الطرق العسكرية،والى الحدود الغربيـة للاناضول ، وهكذا بدأ التركمان يزحفون على المناطق الساحلية التى كانت لا تزال فى يد الامبراطورية البيزنطية،

(١٠) L. de Mas Latrie, L'ile de Chypre, paris 1879, P. 246.

(١١) G. Pauthier, le livre de Marco polo, Vol. I, paris 1865, P. 35 — 37; A. Charignon, le livre de Marco polo, t.I. pékin; 1929 P. 34.

ولم يكن هذا الزحف شبيها بزحف السلاجقة أثناء فتوحاتهم الأولى للاناضول حين انطلقوا فاستولوا سريعا على سواحل بحرى ايجه ومرمرة ، فقد كان هذا الزحف السلجوقى الأول أشبه باحتلال عسكرى لمناطق آهلة بعناصر أجنبيه تركت بغير دفاع نتيجة لاضمحلال الجيوش البيزنطيه ، ولذلك فلم يكد الصليبيون يهبطون من الغرب حتى استطاعت أسرة كومنين ـ بمساعدتهم ـ أن تطرد السلاجقه وأن تسترد بيتينيا ويونيا وليديا والمدن الساحليه الهامة فى الشمال وفى الجنوب •

لم يكن الزحف الجديد شبيها اذن بالزحف القديم وذلك أن الترك كانوا قد نبتوا أقدامهم فى مدن وسط الأناضول وقراه ، وكان من الطبيعى بعد أن زادت كثافتهم أن يزحفوا نحو الغرب بحثا عن أماكن جديدة يتوطنونها فانحدروا من الهضاب والجبال وهبطوا المناطق الساحلية ، ولقد كان بهذه المناطق جماعات تركية بقيت من عهد الفتوحات الأولى وقبلت حكم البيزنطيين ، وجماعات هاجرت ـ لأسباب مختلفة ـ فى القرن الثالث عشر ودخلت فى خدمة البيزنطيين وجماعات أخرى تركيه نصرانيه ووثنية جاءت بها بيزنطه أو امبراطورية نيقية بعد ذلك من البلقان لتقيمها على الحدود •

ولو كانت بيزنطه من القوة بحيث تحمى حدودها أثناء تدهور دوله الايلخانيين فما كانت زيادة السكان التى سببها الغزو المغولى فى وسط الاناضول لتؤدى الى الانسياح فى اتجاه الغرب ، ولكان

من المحتمل أن تؤدى تلك الزيادة الى صدامات مستمرة بين البدو والحضر أو بين جماعات البدو المختلفة ، بل ربما حدث مثل الذى شاهدنا فى القرون السابقة من دخول بعض العناصر البدوية الباحثة عن المراعى فى الاراضى البيزنطية والتحاقها بخدمة البيزنطيين،ولكن بيزنطة ـ لأسباب داخلية وخارجية ـ كانت أضعف فى ذلك الوقت من أن تدافع عن حدودها الأناضولية ، وبسبب هذا الضعف لم تستطع رغم ديبلوماسيتها الدقيقة التى كانت تحسن منذ قرون أن تقضى بها على قوات العدو بأن تدفع بعضها ببعض .. لم تستطع أن تصنع شيئا ازاء هذا الزحف النهائى المتقدم بخطى وئيدة ولكن أكيدة ولقد كانت الأوضاع الداخلية والخارجية كلها تجعل الاستيلاء التركى أمرا لا يدفع ..

٣ ـ عرض مجمل للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى

حاولنا فيما تقدم أن نوضح عاملا ربما كان أهم العوامل المورفولوجية لتضييق الترك على البيزنطيين أواخر القرن الثالث وابان القرن الرابع عشر على وجه الخصوص ، ذلك التضييق الذى حمل البيزنطيين فألقى بهم بعيدا عن آخر ما احتفظوا به من الاراضى فى غرب الاناضول .

ولكن هذا العامل مهما تكن أهميته لا يغنينا اذا كنا ندرس مشكلة تاريخية معقدة كمشكلة قيام الدولة العثمانية عن أن ندرس

عوامل أخرى اجتماعية تزيد الموضوع وضوحا والرأى أن نحاول وضع الخطوط العريضة للحياة الاجتماعية فى الفترة التى شرحنا أطوارها السياسية .

ويمكن أن ندرس هذه الحياة الاجتماعية وظروفها فى مجتمع أتراك الاناضول الذين شكلوا فى القرن الثالث عشر (تحت اسم السلاجقة وهم الأسرة الحاكمة) تنظيما سياسيا خطيرا فى الشرق الأوسط ، يمكن أن ندرس هذه الحيـــاة فى ثلاث مجموعات كل مجموعة على حدة .

(أ) البدو :

كان هؤلاء البدو الذين يعيشون فى القيشلاقات أى المشاتى واليايلاقات أى المصايف يزاولون الزراعة بقدر مايسدون حاجتهم، ولكنهم كانوا يحيون أساسا على تربية الحيوان،وكانت صناعة السجاد وعمليات النقل موارد اضافية يستكملون بها وسائل العيش ، وهؤلاء البدو هم الذين كانوا يربون الخيل ويصنعون السجاجيدالاناضولية المشهورة فى ذلك الوقت .

وكانت مشاتى هذه العشائر التى تعيش تحت الرياســـات الوراثية ، ومصايفها معينة معروفة الحدود .

ولكن البدو لم يكونوا يحجمون أثنـاء ترحالهم عن الاضرار بالقرى الواقعة على طريقهم أو تخريبها كما لم يكن من النادر أن

ينشب الخلاف بين هده العشائر لأسباب كثيرة وكان على هذه العشائر أن تؤدى للدولة ضرائب سنويه عينيه لا نقديه تتناسب مع كميـــه ما تملك من القطعان،ولم يكن يعفى من ذلك الا العشائرالتى أقطعت المشاتى والمصايف فى مناطق الحدود لغايات عسكريه ، فقد كانت هذه العشائر تلتحق – كلما احتـــاجت الدوله – بجيشها يقـودها رؤساؤها الذين يقال لواحدهم « ايل باسى » ، ولقد كانوا – وهم أهل قتال لا يتخلف نساؤهم ولا أطفالهم عن حمـل الســـلاح – يسدون للدوله خدمات عسكرية كبيرة فى مناطق الحدود •

ومن ذلك أن عشيرة جبنى التى أقيمت فى الجنوب الغربى من امبراطورية طرابزون استطاعت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر أن تحبط هجوما قام به الطرابزونيون على سينوب ، وكان بدو الحدود هؤلاء ينقضون – اذا أتيحت لهم الفرصة على أراضى العدو فيسـلبون وينهبـــون ولقد أمدنا Bertrandon de la Broquiére الذى جاء الى بروسة فى السنوات العشر الاولى من القرن الخامس عشر بطريق (حماة – أنطاكية – أذنة – قونية) بمعلومات قيمة عن حيـــاة التركمان فى جنوب الاناضـــول وتناول خصالهم بكثير من التقدير (١٢) ، وتعطينا هذه المعلومات صورة حيـة عن طرز معيشـة العشائر التركمانية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر •

---

(١٢) LE Voyage d'outre-mer de Bertrandon de la Broquiere, publié par Ch. Schefer, Paris, 1892, P. 82, 98.

وكانت هذه العشائر ـ ولن نتناول هنا مع الأسف أجهزتها ونظمها القانونية ـ هى أنقى العناصر التى تمثل القوميه التركية وأكثرها حيوية ولكنها لم تكن تعترف باى نظام اجتماعى غير نظامها العشائرى المغاير لمفهوم النظام فى الدولة ، وكانت هذه الكتل التى لا تنصاع لقانون تنظر لأهل القرى والمدن باستخفاف فان آنست خللا فى جهاز الادارة انقلبت الى عناصر فوضويه مخربة فهاجمت القرى المكشوفة والمدن الضعيفه الدفاع وقوافل التجار وأعملت السلب والنهب وكان لحركاتهم هذه دوافع كثيره منها طمع جباة الضرائب وسوء استعمالهم السلطة ومنها جشع رؤساء العشائر ومنافعهم الخاصة ومنها القحط وهلاك القطعان وغير ذلك من الأزمات الاقتصادية .

ولا شك فى أن معلوماتنا عن أوائل أيام القرمانيين تكشف عن كثير من جوانب هذا الموضوع ، فقد كان السلاجقة اذا عجزوا عن اخضاع بعض رؤساء العشائر أضفوا عليهم الألقاب الرسميه وعمدوا الى بعض أفراد عائلاتهم فبوءوهم مناصب فى البلاط ليكونوا رهائن فى أيديهم ، ومع هذا فقد كان السلاجقة قليلا ما يوفقون فى قمع العصيان ، وعلى الرغم من أن قوافل التجار كانت دائما فى خفارة قوات مسلحة ، وعلى الرغم من أن الطرق التجارية كانت بها نقط لافرار الأمن فقد كان السلاجقة ـ حتى والادارة المركزية فى أوج قوتها ـ يبنون الربط شبيهة بالقلاع ، مزودة بكل وسائل الدفاع اتقاء لانقضاضات البدو المفاجئة .

ومع أن هذه العشائر التركية كانت مسلمة بوجه عام فانها لم تكن مستمسكة بالاسلام بل كانت أكثر اتباعا لتقاليدها المتوارثةالتى يغطيها طلاء اسلامى سطحى وكانت خاضـــعة لباباوات هراطقة من غلاة الشيعة ، هم فى حقيقه الأمر امتـداد للشامانات الترك تعلوهم مسوح اسلامية .

وكما كان بين هؤلاء البدو وبين أهل الحضر فروق اقتصادية واجتماعية فقد كان بينهم ـ على ما سنبين فيما بعد ـ فروق دينيــة أيضا ، وقد قامت كبرى ثورات هؤلاء البدو فى القرن الثالث عشر وهى الثورة التى تذكر فىالمصادر التاريخية بعبارة : (بابائيلرقيامى) = ثورة البابائيين .

فقد أمر بابا رســول الله أتباعه وكانوا كثيرين بين تركمـان الأناضـول فثاروا فى عهـد كيخسرو الثـانى فى مناطق كفرسـود ومرعش ، وكان هؤلاء الأتباع مهيئين قبل صدور أمره للثورة لأنهم كانوا يعلمون أنه سيعلن الجهاد فى يوم ما ، وانقضت جموعهم على المدن والقرى ومعهم النساء والاطفال وقطعان الماشية يحدوهم الطمع فى الغنائم والرغبة فى الجنة .

وبددوا شمل عدد من الجيوش السلجوقيـة خرجت للقائهم واستطاعوا أن يسيطروا تماما على مناطق ملطية وتوقات وأماسـيا ، والتحق بهم التركمان فى تلك المناطق ورأى السلطان السلجوقى أن قونية ليست بمأمن من سـطوتهم فلجأ الى قلعـة قباذية ومع أن

جيشه الذى أرسله لمواجهتهم قد قبض على بابا رسول الله وشنقه فانه انكسر امام جموع التركمان •• ثم استطاع السلطان أن يقمع هذا العصيان قمعا داميا على يد جيش آخر مركب من عناصر مختلفه ومستدعى من المناطق الشرقية وذلك فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ — ١٢٤٠) •

ولقد كنت كشفت فيما مضى عن الاسباب البعيدة لهذه الحركة التى ظهرت فى منطقة كان يسكنها البيالصه Paulicien قديما ، وبينت أيضا أسبابها المباشرة ونتائجها الخطيرة وأثبت لاول مرة أن التيار البكناشى وحركات البدو الهراطقه التى استمرت فى الأناضول حتى القرن السابع عشر والتى كان لها علاقات وثيقة بقيام الدولة الصفوية فى ايران ••• أثبت أن هذا كله له علاقة بالبابائية (١٣) ، ولما كنت سوف أفرد هذه الظواهر والطوائف الدينيه بالبحث نظرا لما كان لها فيما بعد من علاقه بقيام الدولة العثمانية فأرانى فى غنية الآن عن تناول الجانب الدينى المحركة البابائيه ، والواقع أننى انما أشرت الى هذه الحادثة الهامة من حوادث الأناضول فى القرن الثالث عشر لأبين مدى قوة العشائر البدويه من حيث هى عامل عسكرى ولأزيد ايضاح التضاد بينهم وبين أهل الحضر من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية •

وانه لمن المحتمل أن يكون بابارسول الله لقى تشجيعا من

---

(١٣) فؤاد كوبريلى : بكتاشيلغك منشأ لرى •

العشائر الخوارزميه على القيام بالثورة أثناء اقامته فى عينتاب وحلب وذلك أن كيخسرو الثـــانى كان قد اتبـع ازاء هـــذه العشـــائر الخوارزمية سياسه عدوانية خاطئه ، فطـردهم من الاناضول ، ومن المحتمل ايضا أن يكون بابا رسول الله لقى تشجيعا من بعض أمراء الأيوبيين ومن المغول الذين كانوا يهددون فى ذلك الوقت حـدود الأناضول •• ومما يوضح علاقة البابائيين بالخوارزمشاهية أن قوة تركمانيه كبيره قوامها سبعون ألفا من المشاة وقسم من الفرسان قد التحقت بالخوارزمية فى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ - ١٢٤٢ م) تحت قيادة دودى أوغلى ، ولا شك فى أن بابا رسول الله كان من حسن التأتى وبراعة السياسه بحيث درس الوضعين الداخلى والخارجى فلم يعط أتباعه اشارة الثورة الا وقوات الدولة السلجوقية مشغوله كلها فى المناطق الشرقية ، ومما يكشف أيضا عن حسن توقيت الثــورة أن توالى الحروب فى تلك الفترة كان قد أدى الى رفع الضرائب ففسد الوضع الاقتصـــادى وانكشف ســـوء الادارة وزاد سخط الطوائف الاجتماعية على حكم السلاجقة •

ويظهر أن هؤلاء البدو الذين تصفهم المصادر التاريخية بأنهم سود الملابس حمر القــلانس ، فى أرجلهم أخفــاف ، يظهر أنهم يمثلون من الناحية الاجتماعيه نفس النموذج التركمانى الذى انحاز الى القرمانيين تحت حـكم المغول وشاركهم فى فتح قونيــه بل انه يمثل نفس النموذج التركمانى الذى ثار فى خراسان على السلطان السلجوقى سنجر فى القرن الثالث عشر •

والى هذا التضاد الاجتماعى بين البدو والحضر تعزى الاتهامات الخطيرة بل الأكاذيب التى ترد أحيانا فيما خلفه علمـــاء الطبقـة البورجوازيه من آثار ، ولما كنا سوف نتكلم عن مناطق الأوج أى مناطق الحدود الأناضولية فلا داعى لتفصيل القول فى عشائر الحدود ولننتقل الى الحديث عن أهل القرى •

(ب) أهل القرى :

تشكل طبقه القرويين أكثريه هامة بالنسبة لعدد سكان الاناضول ولكن الأناضـول لم يكن آهلا أيام الفتوحات السلجوقيه الأولى فقد كانت الحروب بين بيزنطه والفرس ثم بينها وبين المسلمين قد أقلت عدد السكان ، وما كانت الفتوحات السلجوقية الاولى وما وليها من حروب وفتوحات فى القرن الثانى عشر لتساعد على زيادة السكان بعد ذلك فجأة ولكن يمكن الظن بأن الحياة فى الأناضول قد أخذت تتطور بالتدريج منذ القرن الثانى عشر •

ولقد كان الشعب غير المسلم الذى لقيه السلاجقة عند الفتح مشكلا من عناصر أتنوغرافية مختلفة الاصول والمصادر ومكونا من قسمين : أهل القرى وأهل المدن ولكن الحروب وسنى الفوضى كانت قد بددت شمل هؤلاء السكان جميعا وزحمت أهل القرى المكشوفه فألجأتهم الى ظواهر المدن والى المدن ذات القلاع ، ومع أن الحرص على مصالح الدولة قد دفع الحكام الترك بعد انتهاء فترة القلاقل الى

بسط حمايتهم على الفلاحين من غير المسلمين فان نسبة النقص فى سكان القرى كانت خطيرة ، ويتضح من هـذا أن الدول التركيـة الأناضولية لم تجد بدا منذ البداية من أن تنشىء القرى علاجا لهذا النقص ودفعا لأذى الكتل البدوية قبل وقوعه.ولأقف بكم الآن عند فكرة خاطئه قديمه كانت تؤدى دائما الى سوء الفهم فى الدراسات التاريخيه :

ليس صحيحا أن الهجرات الكبيرة التى بدأت بعد قيام دولة السلاجقة فى خراسان لم تحمل الى الاناضول الا العناصر البـدوية فقد كان فى الوافدين عناصر ألفت منذ القدم حياة القرى بل حياة المدن فى آسيا الوسطى ، وكان من الطبيعى أن تواصل هده العناصر فى مواطنها الجـديدة نفس الطـرز المعيشية التى كانت تزاولهـا فى مواطنها القديمة ، وقد بادر القرويون فعلا الى انشاء القرى وشرعوا فى الانتاج الزراعى وتوطن سكان المدن فى المدن .

واذا كنا نستنبط من المصادر التاريخية أن بعض الأمراء من أسر خاقانات تركستان (وهم أصـهار السـلاجقة) قد وفـدوا الى الأناضول ومعهم قوات من تركستان الغربية بعضهم من أهل القرى وبعضهم من أهل المدن اذا كنا نفهم ذلك من المصادر التاريخيـة ، فان الدراسات الطوبونيمية فى الأناضول تؤيد هذا الفهم الى حد ما.

ويمكن القــول بأن بعض العنــاصر الاسلاميه من غــير الترك وبعض العناصر المسيحية قد وفدت أيضا على الأناضول وأسست لها قرى ، ولكن هؤلاء جميعا تتركوا بالندريج وسط الأغلبيه التركيــة وتحت الحكم التركى ، وكانت الحياة أكثر تطورا فى القرى الواقعة على الطرف النجارية وفى أكناف القصبات وفى المناطق التى تزاول صناعات التعدين ولكن الواقع منها على المسالك الكبيرة لم يكن بمنجى دائما من التخــريب ، وكان موقف ما يجاور منهــا مصايف البــدو ومشاتيهم دقيقا وصعبا .

وقد حمل هؤلاء الترك الوافدون من تركستان الغربيه والذين كانوا يزاولون الزراعة فىمهدهم الأول آثارات من ثقافتهم الزراعية القديمة الى ايران ثم الى الأناضول ، ومن الحقائق التى لا تخلو من المغزى أنهم أتوا بأسماء قرى مهدهم الأول وقصباته ثم أنشأوا قرى ومدنا جديدة أطلقوا عليها نفس الأسماء .

ومهما يكن فمنــذ القرن الثــانى عشر حتى الآن وعــدد من العشائر التركية البــدوية يوطن على الاقامة ويتحــول بالتدريج من البداوة الى الحياة القروية ، وقد بذل السلاجقة والعثمانيون بخاصة جهودا كبيرة فى هذا السبيل .

ولكن هل تطورت الحياة القروية أم اضمحلت فى الأناضول على عهد المغول ؟

هذه مسألة لا يمكن البت فيها الآن وان يك واضحا أن ورود

عناصر بدوية جديدة مع المغول لا يمكن أن يساعد على تطور هذه الحياة بل لا بد أن يكون قد وقف تطورها فترة مؤقتة على الأقل •

وكانت القرى تمثل فى الغالب اما وحدة دينية واما وحدة اتنوغرافية اذ ربما فطنت بطون معينة من قبائل معينة فى بعض القرى فتعرف هذه القرى باسمها الاتنوغرافى •

ومع أننا لا نستطيع أن نقول القول الفصل لا فى الدور الاقتصادى الذى كانت تقوم به القرى الأناضولية قبل الفتح المغولى ولا فى تشكيلاتها الاجتماعية ولا فى الضرائب التى كان عليها أن تؤديها للدولة فاننا نستطيع بفضل ما بين أيدينا من الوثائق المختلفة أن نستنتج فى هذا الباب بعض الأمور فمن ذلك مثلا أن أهل القرية لم يكونوا يشكلون طائفة اجتماعية متجانسة ولكن كانت طائفة قليلة من أهلها تزرع بنفسها أراضى مملوكة لها وطائفة ثانية تزرع أراضى غيرها لقاء أجر يومى ، وأخرى ــ وهى الأكثر ــ تستغل رؤوس أموالها فى زراعة أراض يملكها الغير لقاء اقتسام الربح مناصفة •

والى هؤلاء جميعا كانت توجد أرستقراطية قروية قليلة العدد جدا تملك قسما كبيرا من أراضى القرية تزرع بعضه بتشغيل الفلاحين وبعضه بنظام المزارعة بالنصف ، وهذه الطبقة الأخيرة كانت هى الطبقة الحاكمة الحقيقية فى القرية ، وكانت فى نفس الوقت حائلا دون الاتصال المباشر بين أجهزة الدولة والشعب ، وكان

بالقرية أيضا الرئيس أو الكخيا وهو يمثل الدولة أو بالحرى سلطتها المالية ، ومع أن المفروض أنه كان يعمل على رعاية المنافع العامة لأهل القريه فانه فى حقيقة الأمر كان سريكا لارستقراطية القريه ٠

وفى بعض الأحيان كانت القرية أو العدد من القرى يكون كله ملك فرد واحد ٠

ولقد كانت الادارة السلجوقية تلاحظ مصالح القرى النى عانت من ويلات الحرب والفوضى وتشتت أهلها فنعفيها ـ الى حين ـ من الضرائب أو تخففها بل ربما وزعت البذور وماشية الزراعة على الشعب ٠

ومع أننا لا نعرف حق المعرفة ماهية الضرائب النى كانت تجبى من القريه فى العصر السلجوقى ولا مقدارها فاننا نستطيع القول بأن الدولة السلجوقية ـ بوصفها دولة اسلامية ـ كانت تأخذ من رعاياها الخراج وعشر المحصولات وأنها كانت تحصل من بعض القرى ضرائب كالتى نعرفها فى دولة العثمانيين مثل ضريبة بيع الأراضى وشرائها وضرائب المحصولات المختلفة والضرائب التى تجبى على البضائع المنقولة الى السوق فى الحدود وفوق الجسور وعلى أبواب المدن ٠

وبقيت هذه الضرائب كلها فى عهد المغول مع فروق طفيفة تتعلق غالبا بالمقادير وقواعد الجباية ٠

وكانت القرية أو مجموعة القرى تعفى من جميع التكاليف اذا قامت مقام الدولة فى استغلال معدن أو حراسة طريق أو اصلاح جسر أو ـ فى الجملة ـ فى عمل يقع أصلا على عاتق الدولة .

وأما الأوقاف فمع أنها قد ضرت بعض الوقت فى عهد المغول بعد اذ كانت موطن رعاية دقيقة فى عهد السلاجقة فانها ما لبثت بعد أن عظم نفوذ الاسلام فى سراى تبريز أن استعادت أهميتها .

والخلاصة أن مسألة الأراضى لم تكن تختلف فى دولة السلاجقة عنها فى الدول الاسلامية فى العصور الوسطى[١٤].

ولنترك الآن هذه النقط المعروفة لنتحدث عن حياة المدينة .

(ج) الحياة فى المدن :

ان أهل المدن هم أهم العناصر فى المجال الحضارى ولكن يحتمل أن تكون الحياة فى المدن الأناضولية قد اضطربت لمدة طويلة نتيجة للفتوح السلجوقية وما أعقبها من الحادثات ، ومع هذا فلم تكد دولة سلاجقة الروم تدعم قواها العسكرية والسياسية فى منتصف القرن الثانى عشر ، وتمد حدودها الى البحر شمالا وجنوبا وتكون جهازا اداريا محكما حتى تطورت التجارة الداخلية والخارجية ، ولقد زاد هذه التجارة تطورا بعد ذلك ما اتخذ السلاطين من التدابير لحمايتها ، وقد ساعد كل ذلك على انعاش الحياة فى المدن .

---

(١٤) حققت هذه المسائل جميعها فى الكتاب الذى نعده الآن عن تاريخ تركيا الاقتصادى فى العصور الوسطى .

ولما كان من المستحيل أن نقف على كنه حياة المدينة وتشكيلاتها دون أن نقف على النشاطين التجارى والصناعي ، فلنتناولهما في اجمال :

انتهج السلاجقه فى القرن الثالث عشر سياسة تجاريه فعالة ويدل على ذلك أنهم أوقعوا بأرمينية الصغرى حين أخلت بأمن قوافل التجارة الترانسيت وأرغموها على دفع التعويضات عما ألحقت بالتجارة من أضرار ، وانهم استولوا على منطقة ميناءى أنطاليه وعلائية لأهمية هذين الميناءين •

وواضح أيضا أن حملتهم على صغداق فى عهد كيقباد الأول لم يكن لها من هدف الا تأمين التجارة بين تجار الاناضول وتجار مصر من ناحية وتجار منطقة جنوب روسيا (الحالية) التى كانت قاعدتها سينوب ، من ناحية أخرى •

وقد كان التجار المصريون يرون أن آمن طريق لهذه التجارة هو طريق الاسكندرية ـ أنطاليا ـ سينوب •

وكانت امبراطورية سلاجقة الروم ممرا بحكم موقعها الجغرافى لكثير من الطرق التجارية العالمية ، وكان من الطبيعي ـ وفى يدها أمثال ديار بكر وأرضروم من المراكز الهامة الواقعة على الطرق التجارية الكبيرة ـ أن تبذل من الجهود ما يحقق لها الاشراف على تجارة الترانسيت وذلك بتأمين هذه الطرق وبالتكفل بدفع كل ما يمكن أن يعرض لها من خطر ، وكأنها قد وضعت

بهذه الرعاية نوعا من الضمان الحكومى لم نستطع الوقوف على كل تفصيلاته •

ولئن كانت قد حاولت أن تحدد استيراد بعض المواد الكماليه من امبراطورية نيقية فلا شك أبدا فى أنها دعمت علاقاتها التجاريه مع الروم •

ولقد أقامت الجمهوريات الايطاليه ـ التى كانت تشغل فى ذلك الوقت المكان الأول فى تجارة البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود ـ علاقات تجاريه بينها وبين السلاجقة الذين امتلكوا موانى جديدة على هذين البحرين •

ومع أن من المعلوم أن كيخسرو الأول وهو فاتح سينوب وخلفيه كيكاوس الأول وكيقباد الأول قد منحوا البنادقة بعض الامتيازات فلم يصل الينا بخصوص هذه الامتيازات الا ما ورد فى فرمان أصدره السلطان علاء الدين سنة ١٢٢٠ م •

ولقد عرفنا أيضا أن البنادقة قد أرسلوا الى علاء الدين سفيرا سنة ١٢٢٨ م •

وينص الفرمان المذكور على أن يسمح السلاجقة للبنادقة بتوريد الأحجار الكريمة والدر والذهب والفضة مسكوكين أو غير مسكوكين ، وكذلك بتوريد القمح دون أن يخضعوا لأى رسم من الرسوم •

وعلى ألا يحصل على غير ذلك من البضائع الا مقدار ٢٪ •

وتضم هذه الاتفاقية أيضا بعض البنود الخاصة بتأمين التجار من الطرفين على أنفسهم وأموالهم ، كما ينص على ألا يتـــدخل السلطان فى الخلافات بين تجار البنادقة وغيرهم من التجار اللاتين الا أن تقع سرقة أو جنـــايه فعنــدئذ يكون الحكم لقضـاة الدولة السلجوقيه ، ولا شك فى أن هذا الفرمان يدل على أن الســلاجقة قد منحوا حـــرية التجارة لتجـار النصارى كما منحوها لتجـــار المسلمين (١٥) .

ولقد كان البروفنسيون Les Provençaux الذين يقومون بالتجارة الترانسيت بين قبرس وسلطنة قونية ينقلون الى الجزيرة الشب والصوف والجلد والحرير الخام والمنسوجات الحريرية(١٦) .

ومن العوامل التى يسرت نشاط التجار الطليان فى الأناضول أن السلاجقة كانوا بحاجة الى المرتزقة من اللاتين والى بعض معدات القتـــال ، ومنها ـ كما يرد فى المصـــادر الشرقية ـ المجـــانيق المغربية (١٧) .

وفى سنة ١٢٥٥م قابل روبروق فى قونيه أثناء عودته من قراقورم رجلين جنويا وبندقيا حصلا من الدولة السلجوقية على امتياز تصدير الشب من الأناضول وكانا يحددان سعره كما يشاءان (١٨) .

(١٥) H. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen age (trad, Raynaud). Vol. I. P. 301 — 304.

(١٦) L. de Mas Latrie : L'ile de Chypre, Paris, 1879, P. 209 — 210.

(١٧) G. I. Bratianu : Recherches sur le commerce génois dans la Mer Noire au XIII S. Paris, 1929, P. 165

(١٨) L. de Backer; Guillaume de Rubrouck, Paris, 1877, P. 292, 293.

ويمكن القول بأن الحركات المغولية وحكم الايلخانيين قد أديا الى نتائج تجارية طيبة رغم القلاقل الاجتماعية التى أحدثاها بالتدريج ورغم الاضرار والاصطدامات الناشئة عن الاعمال العسكرية ، ولئن كانت تجارة الامبراطورية السلجوقية التى بسطت نفوذها فى النصف الأول من القرن الثالث عشر على الامارات الاسلامية الواقعة على حدودها الشرقية قد تقدمت بخطى ثابتة ومتوالية فان الرخاء والرفاهية كانا يلفتان النظر بخاصه فى المراكز الواقعة على الطرق التجارية الكبرى مثل قونية وقيصرية وسيواس وأرضروم •

نعم : قد يبدو القول باستمرار هذا الرخاء فى العهد المغولى غريبا أول وهله ولكن المصادر النصرانية التى تحدثت عن أناضول ذلك العصر ككتابات ماركوبولو وروبروق وهايتون وكذلك المصادر الاسلامية التى حررت فى القرنين الثالث والرابع عشر ثم الآثار المعماريه الفخمة التى بقيت عن هذه الفترة ، كل أولئك يدل على استمرار الرخاء ؛ فان الأناضول وهو داخل فى حدود الامبراطورية الايلخانية الكبيرة كان فى وضع ملائم للتجارة الترانسيت بين ايران وأوربا بل انه تخلص من حواجز الحدود ، وكانت سيواس بحكم موقعها الجغرافى مركزا لتقاطع الطرق التجارية وبها كان يلتقى أغنياء التجار المسلمين الآتين من سوريا والجزيرة وقونية بنظرائهم من الجنويين وكانت القوافل ترسل منها الى موانى البحر الاسود وطرابزون وسمسون وسينوب بوجه خاص •

وقد صارت سيواس هذه التى تقع على الطرق المؤدية الى تبريز والى مراكز شرق الأناضول وموانى البحرين الأبيض والاسود ومختلف أنحاء الاناضول ، صارت غير مرة مقرا لولاة المغول ، وبعد أن دمر المماليك الامارات اللاتينية فى سوريا صار ميناء يومورطه لق مركزا من الدرجة الأولى للتجارة بين المغول والنصارى ووصل هذا الميناء بتبريز بطريق كبير يمر بسيواس وصفه Pegolotti وصفا تفصيليا •

ومع أن طربزون وتبريز كانتا أهم المراكز بالنسبة للتجارة بين أوربا ووسط آسيا والشرق الأقصى فان الأناضول كان يفيد أيضا من سياسة امبراطورية الايلخانيين الاقتصادية •

وآية ذلك أن حصيلة الضرائب به كانت تتزايد بالتدريج ، فبينا هى فى بداية حكم المغول ٦٠٫٠٠٠ دينار و١٠٫٠٠٠ رأس من الضأن و ١٠٠٠ ثور وألف حصان ، على ما يقول المؤرخ بدر الدين العينى ، اذا هى ترتفع فى عهد الوالى المغولى بايجو الى ٢٠٠٫٠٠٠ دينار كما يقول المؤرخ آقسرائى ، وقد احتفظت بهذا المستوى حتى سنة ١٢٥٦ •

وبينا هى ٦٠٠٫٠٠٠ دينار فى بداية سلطنة غازان اذا هى تبلغ طبقا لحساب سنة ١٣٣٦ كما أورده حمد الله المستوفى (٥٫٦٤٥٫٠٠٠) دينار أى (١٦٫٩٣٥٫٠٠٠) فرنك ذهبى •

ولندخل فى اعتبارنا أن ولايات غرب الاناضول الحالية لم

تكن داخلة فى الحساب وأن الأقسام الشرقية التى تدخل الآن فى حدود سوريا ، والعراق كانت داخلة فى الأناضول •

ولا يمكن تعليل هذا الفرق الكبير فى حصيلة الضرائب فى تلك الفترة القصيرة التى لم تتجاوز قرنا من الزمان بمجرد رفع الضرائب أو بما يشبهه من الأسباب[١٩] •

ولا شك فى أن ما رواه هايتون الأرمنى Haython فى أوائل القرن الرابع عشر عن ثراء تركيا[٢٠] وعن وجود نوعين جيدين من الشب والفضة بأراضيها ثم حديثه عن كثرة خمورها وقمحها وفواكهها وقطعانها وجمال خيلها ، وكذلك ما ورد فى المصادر الاسلامية التى ترجع الى النصف الأول من القرن الرابع عشر عن رخاء تركيا ورخص أسعارها لا شك فى أن كل هذا يدل على تحسن الأوضاع الاقتصادية بعامة بعد أن كانت قد تأزمت فى بعض الفترات فى المدة بين غزو الظاهر بيبرس للأناضول وتولى السلطان غازان •

ولنترك هذه المسألة المضطربة التى تحتاج – لأهميتها – الى

---

(١٩) تورك حقوق واقتصاد تاريخى مجموعة سى مجلد ١ ، ٩٣١ ص ١ – ٤٢

(٢٠) Recueil des Historiens des Croisades, Documents armeniens, t. II, P. 271 — 272; H. Omont, Notice d uManuscrit 10, 050 de la Bibliothéque Nationale contenant un nouveau texte français de Haython (Notice et Extraits, XXXVIII, 1903, P. 262 — 263.

أن نخضعها لكثير من النقد التاريخى المحكم والى كثير من المناقشات والملاحظات ولنتحدث عن حياة المدينه وأجهزتها •

لا نظننا نخطىء كثيرا من وجهـــة نظر التـاريخ السـيـاسى والاجتماعى اذا نحن أرجعنا تطور الحياة فى المدن الأناضوليـه الى النصف الثانى من القرن الثانى عشر والى القرن الثالث عشر بوجه خاص •

واذا لم يكن شك فى أن الترك قد أخذوا منذ الفتوحات الأولى فى سكنى المدن البيزنطيه التى يستولون عليها فلا شك أيضا فى أن تنظيم العلاقات التجاريه وتمركز بعض الصناعات فى المدن أو لاشك ـ اذا أردنا الايجاز ـ فى أن تحول الاقتصاد القروى الى اقتصـاد مدنى قد تم على نحو تدريجى • ولكن كيف تم اسكان المدن التى سقطت أيام الفتوحات الأولى ؟ وكيف أسست المدن الجديدة ؟ ولم أسست ؟ وهل أقيمت هذه المدن فى مواقع مدن قديمه خربة ؟

لسنا هنا بصدد البحث فى هذه المسألة الغامضه بقدر ما هى مهمه وانما مقصدنا هو تبيان تطور الحياة فى مدن الأناضول وتناول أجهزتها من القرن الثالث عشر الى قيام الدولة العثمانية أو لعـل قصدنا أن يكون ـ بتعبير أدق ـ هو مجرد التنبيه الى ضرورة البدء فى هذا البحث •• فان الدراسات التاريخية المقبلة بحاجه ماسة الى أن نشرع فورا فى بحث هذه المشكلة من مشاكل التاريخ الاجتماعى

التى لم تحظ بأى عناية من قبل ، لا يحول بيننا وبين ذلك قلة الوثائق وأنها شذرات متفرقة .

ولكن يجب قبل الخوض فى هذه المشكلة أن نحدد بالضبط المعنى الذى نريد من كلمة مدينه Ville

اننا نقصد من كلمة مدينه فى هذا المقام معنى قريبا جدا من المعنى الذى أراده Henri Pirenne فى دراسته عن مدن القرون الوسطى (٢١) ، بل ربما كان المعنى الذى أقصد هو نفس المعنى الذى أراده مع اعتبار الفرق بين خصائص العصور الوسطى فى الغرب المسيحى وخصائص العصور الوسطى فى الشرق الاسلامى ، اذ ليست المدينة التى نحاول دراستها هنا تشكلا قبلى النشأة ، نظامه الدستورى Systéme constitutionel هو هو نظامه البلدى Systéme municipal كما كان الحال فى مدن العصر القديم ولا هى تشبه القصبة Bourg فى العصور الوسطى المتقدمة ، وان كان من المحقق مع هذا أن من المراكز الاسلامية التى نعرف كيفية نشأتها كالكوفة والفسطاط ما يشبه الـ Cité الى حد ما .

ولكن هل كانت المدن التى تقع على الطرق العسكرية الكبرى مثل قونيه وأرضروم وسيواس تنشأ — على عهد السلاجقة — الى جانب المدن التى اقتضت الضرورة العسكرية تخريبها ؟ وهل كانت

---

(٢١) H. Pirenne; Les villes du moyen age, Bruxelles, 1927, P. 55.

تنشأ ـ مثل ال Cité الى حد ما ـ نتيجة لتوطن البطون الغزية المختلفة في محلات مستقلة الى جانب تلك الخرائب ؟

ومع أنى أحتاط فلا أتحدث الآن في شيء من ذلك الا أن من المحقق أن هذه المدن الأناضوليه الهامة لم يكن بينها في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ما يشبه ال Cité شبها أى شبه ، وانما كانت مراكز تجاريه وصناعية كبيرة تشترك في العيش فيها عناصر اتنوغرافية شتى ونحل وطبقات اجتماعية مختلفة وأرباب مهن كبيرة، وكان مثلها في ذلك كمثل بغداد وحلب وغيرهما من مدن التاريخ الاسلامى • والواقع أننا نلاحظ منذ القرن الثالث عشر أن المدن القديمه الكبيرة كقونية وقيصرية وسيواس لم يكن يعمرها الترك وحدهم بل تعمرها عناصر مختلفة اتنوغرافيا ودينيا ، ومع أن الترك والمسلمين كانوا يشكلون الأغلبية فقد كان بهذه المدن روم وأرمن وقليل من اليهود على حين كان من بين المدن الصغيرة والقصبات مالا يسكنه الا الترك وحدهم •

وكانت نسبة العناصر الأخرى تتغير بطبيعة الحال من مدينة الى مدينة ولكن الوثائق التى بين أيدينا لا تعين على معرفة نسبة هذه العناصر ولا تغيرها ولو بصورة تقريبية •

وفى مدن الاناضول توطنت العناصر التى ألفت حياة المدن منذ قديم والتى وفدت مع الشعب التركى المسلم المهاجر الى

الاناضول بعد ظهور المغول وأثناء حكمهم ، وأما العناصر السامية والايرانيه فسرعان ما تتركن وسط الأغلبية التركية .

وكان أصحاب كل دين يقيمون فى محله مستقلة ولكن حياة المدينة كانت تقرب جدا من الناحيه الثقافيه بين المسلمين وغير المسلمين وتقلل ما بينهم من الفروق فلما مات مولانا لم يشترك فى جنازته مسلمو قونية وحدهم ولكن اشترك أيضا نصاراها ويهودها[٢٢]، وكانت العادات والمقدسات المحلية التى ترجع الى ماقبل المسيحية منتشرة بين سكان المنطقة المسيحيين منهم والمسلمين[٢٣].

وقد تعلم الروم والأرمن الذين يعيشون مع الترك لغتهم كما لم يكن عدد الترك الذين يعرفون لغة هدين العنصرين ـ والروميه بخاصه ـ قليلا [٢٤] ، وقدكان تزوج الأتراك بالروميات والأرمنيات يساعد على كل ذلك .

والخلاصة أن سكان المدن السلجوقيه كما لم يكن بينهم أى فروق من ناحية الحضارة الماديه لم يكن بينهم أيضا ـ مسلمين ونصارى ـ خصومات أو صدامات ناشئة عن أسباب دينية .

---

(٢٢) لهذه الحادثة مغزاها وقد وردت فى الافلاكى وسبهسالار وغيرهما من كتب التراجم ووردت بخاصة فى شعر سلطان ولد بن جلال الدين .

(٢٣) F. W. Hasluck : Christianity and Islam under the Sultans (Oxford, 1929).

(٢٤) N. Jorga, Histoire, Vol. III, P. 18, 227.

وفى المصادر الاسلامية أدلة أخرى تؤيد وجهة النظر هذه .

ولقد كان السلاطين السلاجقة بعيدين عن التعصب الديني، وكذلك كانت الادارة الايلخانية •

ومع أن دولة سلاجقة الروم كانت تحافظ على مبادىء الشريعة الاسلامية فانها لم تكن تيوقراطية وكانت تجعل مصلحتها عمليا لا نظريا فوق كل اعتبار •

ولقد كان من الطبيعي أن يظهر تطور الحياة المدنية في مدن شرق الأناضول ووسطه مبكرا ، وأن يبدأ متأخرا في مدن غرب الأناضول •

ومن هنا لم يكن في غرب الاناضول حتى القرن الرابع عشر مدن يمكن أن تضاهي بمدن وسط الأناضول الكبيرة ، بل ان أهم المدن الساحلية على البحرين الأبيض والأسود لم تستطع لأسباب سياسية واقتصادية أن تحرز من التقدم ما تنافس به المدن الداخلية•

ولما كانت دولة السلاجقة لم تملك في أي وقت أسطولا بحريا فقد كانت مدن التجارة الخارجية كأنطاليا وعلائية معرضة دائما لغارات الأساطيل الاجنبية •• وبقيت هذه المدن بمثابة أساكل échelles محصنة تحرسها فيالق قوية أو بمثابة « أسواق للمبادلة التجارية » Marchés d'echanges وكان من المستحيل والدولة لا تملك أسطولا أن تقوى على تحويل هذه المدن الى مدن تجارية كبيرة وبالاضافة الى هذا كان لأرمينية الصغرى ميناء يمورطه لق

على البحر الابيض وكان لامبراطورية طرابزون ميناء طرابزون على البحر الاسود وكانت الطرق التجارية الرئيسيه للتجارة بين آسيا وأوربا تنتهى عند هذين الميناءين وكانت أهميه هذين الميناءين تفوق أهميــة الموانى السلجوقية لا فى تجارة الترانسيت فقط ولكن فى تجارة الاناضول الخارجية أيضا ، وكان من الطبيعى ، وقد عظمت أهمية التجارة الداخليه ، والتجارة بالطـرق البريه مع الشرق أن تكون المراكز (التجـاريه) الداخلية continental أكثر تقـدما من مثيـلاتها الساحليه ، ومن هنا لم تتقدم الحيــاة فى المدن على ساحل بحر ايجه الا فى القرن الرابع عشر بعد أن ظهرت عليـه وعلى سواحل البحر الابيض امارات لها أساطيل بحرية قويه ومع هذا فان مما يلفت النظر أن أهم المدن سياسيا فى هذه الامارات هى المدن الداخلية لا الساحليه ولقد نشطت الحياة فى مدن غــرب الاناضول فى القرن الرابع عشر أيضا لأسباب لا تكاد تخفى •

ومن الطبيعى ـ فى الأناضول كما فى غيره ـ أن تكون التجارة والصناعة هما أهم عوامل التطوير فى حياة المدينة •

نعم : قد يمكن القول بأن زيادة السكان فى بعض المدن ترجع الى أسباب سياسية ولكن اذا رأينا مدنا كبيرة وصغيرة تكثر فى وقت واحد فى بلد ما فلا بد أن نبحث لذلك عن علل اقتصادية •

ولما كان من غير الممكن أن نبين فى هذا المقام درجة تطـور كل مدينة من مدن أناضول القرن الثالث عشر على حدة وأسـباب

ذلك التطور فاننا نكتفى بدراسه نموذج هو سيواس : كانت هــذه المدينة بحكم موقعها الجغرافى ووقوعها وسط منطقه خصبه فى وادى « فيزيل ايرماق » مركزا تجاريا وسياسيا هاما منذ العصور الأولى ونستطيع تلخيص كل ما ورد عن هذه المدينة فى مصــادر القرنين الثالث عشر والرابع عشر على هذا النحو : سيواس مدينه كبـيرة عامرة يحيط بها سور،مشهورة بحبوبها وفاكهتها وقطنها ومنسوجاتها بها أربعه وعشرون خانا وجامع كبير ومساجد ومدارس وتكايا ومبان جميلة ، واسعه التشــــوارع ، مزدحمة الأسواق يلتقى فيها التجار الآتون من سوريا والجزيرة بل الآتون من الغرب ، أهلهــا أغنياء يحبون الفخفخة واللهو ، بها أوقاف كثيرة للمنافع العامه ، حتى ان بها وقفا لالقاء الحب للطيور فى مواسم الجليد نظرا لشدة بردها ، ويروى Khalkokondyle أن عدد سكانها فى تلك الفترة كان ١٢٠ر٠٠٠ نسمة ، ويقول القزوينى ان سكانها كانوا من التركمان، ونظن أن هذه المعلومات القليلة كافية لبيان العوامل الاقتصادية فى تقدم سيواس •

ومع أن سيواس ليس لها من الأهمية ما لقونية وقيصريه فان فى الاناضول مدنا يمكن ارجاع تطـورها الى نفس العـوامل التى طورت سيواس مثل أرضروم وأرزنجان وخربوط وأماسيا وتوقات ونيكده ونيكسار وقيرشهر وآقسران وأنقرة وغيرها •

والآن فلنتحدث بايجـاز عن الحيـاة الداخليــة فى المراكز

التجاريه والصـــناعية ذات الأغلبية التركيـة مثل سيواس متناولين التشكيلات المحلية والطوائف الاجتماعية التى تولدت عن طبقة مهنية متقدمة •

كانت طبقه كبيرة من أهل المدينة تتكون من أناس يخـدمون الدوله أو يعيشون على ميزانيتها •• وكما كان العاملون فى الادارة المركزيه كثيرين فى العاصمة ، كان العاملون فى الادارة المحليـة يكونون بدورهم زمرة كبيرة فىالمراكز الاداريه الهامة وكان ديوان رئيس الادارة المحليه ان كان أميرا، نموذجا مصغرا لديوان السلطان فى العاصمة •

وكانت قواعد التشريفة فى قصور السلطان والأمراء ، كمـا كانت طرز الحياة وحفلات استقبال السفراء والصيد والزواج كان كل أولئك من الأبهة والجلال بحيث يتكلف الأموال الطائلة ويذكر بأشباهه فى قصور بغداد واستانبول •

وكذلك كانت دواوين رجالات الدولة منالمدنيين والعسكريين تعيش فى بذخ باهظ التكاليف •

وكان على موظفى الدواوين الحكومية ـ كل بحسب درجته ـ أن يحيا حيـاة مرتفعة المسـتوى ولما كانت المنـاصب فى تلك الفترة وراثية من الناحيـة العملية لا القانونية فقـد تكونت حول الأسرة الحاكمة بيروقراطية أرسـتقراطية قوامها العـائلات التى تعمـل فى خدمتها •

وكان أصحاب المناصب هؤلاء يملكون من الثروات ما يمكنهم من الحياة التى تناسبهم ولم يتزلزل وضعهم كيرا حتى تحت تحكم المغول الذين عينوا فى بعض المناصب موظفين وافدين من أماكن بعيدة • ولقد كان للموظفين المدنيين والعسكريين والقضائيين مرتبات كبيرة بالاضافة الى ثرواتهم الشخصيه •

وكانت هذه الطبقه التى تملك كثيرا من الأراضى وكثيرا من العقارات فى المدن تخرج ـ اذا وجدت الفرصة ـ مدخراتها لتجعل منها رؤوس أموال تجارية وكانت تشارك بعض كبار التجار بل كانت ـ سرا بطبيعه الحال ـ تزاول المضاربات غير المشروعه •

وعدا الموظفين والعسكريين كان العلماء والمدرسون والوعاظ وشيوخ الطرق والسادات والشعراء والأطباء والنقاشون والموسيقيون ومن جرى مجرى هؤلاء جميعا من المتصلين بالقصور أو برجالات الدولة يتقاضون جميعا أموالا من الخزانة •

وقد أسس كثير من المستشفيات ومطاعم الفقراء والتكايا والمدارس وكتاتيب الصبيان بفضل أوقاف السلاطين وأهل بيتهم من الرجال والنساء ورجالات الدولة وأثرياء التجار أى أن المساعدات الاجتماعية والعلمية والمرافق العامة لم تكن ـ رغم تقدمها بالنسبة الى ذلك الوقت ـ تشكل عبئا على خزانة الدولة •

واذا كان صحيحا ان هذه الأعمال جميعا كانت سببا لتقدم المدن فى أناضول القرن الثالث عشر فأصح من ذلك أن نقول انها كانت نتيجه لا سببا ، لأن العنصر الذى كان عماد الحياة المدنية والذى كان يملأ المدن ويواجه الفساد الادارى والمالى طورا باظهار السخط وطورا بحمل السلاح انما هو عنصر أرباب الحرف ممن يعيشون بكد أيديهم ويكونون أكثف كتلة فى شعب المدينة .

وكان أهم العوامل التى تساعد على تجمع أرباب الحرف فى المدينه هو رأس المال التجارى أى أن طبقة التجار هى التى كانت تنظم النشاط الصناعى رغم قلة عددها ، فقد كانت هذه الطبقة هى التى تتكفل بتدبير أمر القوافل الداخلة الى البلد والخارجه منها ، وتتكفل فى نفس الوقت بتوريد حاجيات المدينه من الاسواق الداخلية والخارجيه ، ولم تكن هذه الطبقة تشغل أموالها الخاصة فقط بل كانت تشغل أموال العائلات الارستقراطية وأموال البيروقراطية وأحيانا الأموال المتواضعة التى تملكها الطبقه المتوسطه .

ولكنها كانت على أى حال هى العنصر الفعال وكانت تتحمل فى سبيل الربح الضخم كثيرا من المخاطر والمتاعب وتقوم بكثير من المغامرات ، وكانت الصناعات فى المدينة تهدف الى أن تسد جزئيا حاجات المدينه وما جاورها من القرى وكذلك حاجات البدو ، وكانت الاسواق الصغيرة المتقاربة المواعيد والاسواق الجامعة Panayir بالتركية و Foire بالفرنسية) البعيدة الانعقاد

تنظم عمليات البيع والشراء، وكان التبادل موجودا فيها بنوعيه النقدى والعينى وكانت تحاول بالاضافه الى هذا أن تسد حاجات الاسواق الخارجية من بعض السلع •

وكانت الصناعة في المديه تتأثر أساسا بالخامات اللازمه لهـا وهل هى موجودة فى نفس المدينه أو فيما حولها ، كما كانت تتأثر بما تمتاز به بعض المدن من تخصص تقليدى فى بعض الصناعات•

وكانت الاسواق المحلية التى تقام داخل المدينة أو خارجها لتسد حاجاتها ، وكذلك الاسواق الجامعة التى تكفل تبادلا تجاريا أوسع ، داخلة جميعها تحت حماية الدولة وخاضعة لرقابتها •

وكانت الدولة تحصل ضريبة خاصة على ما يتم فيها من المعاملات ، كما كانت تعد دائما قوة عسكرية لا يستهان بها لحماية الأسواق الكبيرة من غارات البدو •

وكانت أهم ضرائب المدينة ، بعد ضريبه الاسواق ضريبه تجبى على بعض ما يدخل المدينة وما يخرج منها من السلع،وفى عهد الايلخانيين كانت الضرائب التى تحصل من المدن تسمى (تمغة) وقد بقى هذا الاصطلاح كما بقى نظام الضرائب الايلخانى مدة طويلة فى الأناضول أو فى بعض نواحيه على الأقل •

وكان بعض الاقطاعيين يحصلون ـ لقاء بدل مخصوص ولمدة معينة ـ على حق الالتزام بتحصيل هذه الضرائب هم ورجالهم •

ومع أن هذا النظام كان سببا فى أن استغل الشعب فقد كان سببا أيضا فى ظهور طائفة من الأثرياء فى المدن .

ولن نتناول هنا التشكيلات الادارية لأهل المدن ولا ضرائب المدن ولا ثقل هذه الضرائب ، وما كان يحـــدث من انحراف فى عمليـــة التحصيل ولا فى رد الفعل الذى كان يحـــدث فى جماهير المدينـــة ، ولكن بحسبنا فى هذا المقام أن نبحث باختصار فى نظام العمل بالمدينـــه وكيف تجمع العمال فى طوائف Corporations وفى علاقة رأس المال بالعمل ثم فى النواحى الدينية ـ الأخلاقيـــة والنواحى القانونية لهذا النظام الاقتصادى كله .

كان لأرباب كل حـــرفه فى المـــدن الكبيرة سوق مخصـــوصه مسقوفة أو مكشـــوفة يزاولون فيها العمـــل فى دكاكينهم ، وكانت الأسواق تختلف فى هذه المدن عددا وحجما بحسب سعة المدينة ، وبحسب ما تحـــرزه بعض الصـــناعات فى بعض المـــدن من الرقى والتمركز .

وكان كبار التجار وأصحاب الدكاكين من باعة البضائع الثمينة يقيمون فى الأسواق المغلقة المحروسة أو فيما جاورها من الخانات الكبيرة الآمنة .

وعلى هذا النحو كانت البضائع مصونة فى المحلات والمخازن

بمنجى الى حد كبير من الحريق والسرقة والتعرض للسلب وغير ذلك من الأخطار •

وفى المدن تجمع أصحاب كل حرفة فى طائفة مستقلة وكانت هذه الطوائف ذات التسلسل الرياسى الدقيق تنظر فى كل مايتعلق بالصنعة من مشكلات وتحل ما يقع بين أفرادها من خلافات ، وتنظم العلاقة بين جهاز الدولة وأرباب الحرف ، وكان من اختصاصها أيضا تقدير الأجور وتعيين مواصفات البضاعة وتحديد ثمنها •

وكانت الدولة تراقب هذه الطوائف وتساعدها اذا اقتضى الأمر أى أنها كانت تعترف بها كهيئات قانونية وكانت تمنحها بعض الحقوق بل الامتيازات •

وقد اكتسب مزاولو التجارة الخارجيه من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة أهمية سياسية خاصة بما كانوا يلبون مطالب قصور السلاطين ورجالات الدولة حتى لقد كان منهم من يوفد الى بعض الدول النائية فى مهمات دبلوماسية أو استخبارية •

ولئن كان نفوذ هذه الطبقة ذات المصالح المشتركة مع الدولة قد حال دون ثورة العمل على رأس المال عندما كانا يصطدمان سرا أو جهرا داخل طوائف الصناع ، ولئن كان وجود رياسة الطوائف فى قبضة أكثر أهلها مالا قد أعان ـ بدوره ـ على منع الثورة فلم تتحرك تلك التشكيلات ضد النظام الاجتماعى فى ذلك العصر ، لئن كان ذلك كذلك فان العامل الأقوى ـ على منع الثورة كان ـ فى

حقيقة الأمر ـ هو المبادىء الأخلاقيه لتلك الطوائف فقد كان مذهبهم الأخلاقى يقوم من ناحية،على الأسس الدينية ـ الصوفيه،ومن ناحية أخرى على تقاليد البطوله أى أنه كان مذهبا تكافليا وغيريا ، يهدف ـ بجعله العلاقة بين العامل ورب العمل كعلاقه المريد بالشيخ ـ الى اقامة نظام روحى •

والحق أن هذه الجماعات الخطيرة المعروفة بجماعات الفتوة والتى تعتبر نوعا من (الفروسية الاسلامية) ، على ما سنبين عند تناول الحياة فى مناطق الحدود ، كانت ـ فى بداية القرن الثالث عشر ـ بدءا انتشر فى كل بلاد الشرق الأوسط الاسلامية •

ولقد كان لهذه الجماعات التى أعاد الخليفة الناصر لدين الله (آخر الخلفاء العباسيين الأقوياء) تنظيمها تشكيلات قوية فى الأناضول يعرف أعضاؤها بعبارة (أخيلر) أى « الاخوان » أو « الأجواد » •

وكان لهذه التشكيلات التى لم يقصر انتشارها على المدن وحدها بل شمل القرى ومناطق الحدود أيضا مثل ما للطرق الصوفية التى غطت العالم الاسلامى كله فى القرن الثالث عشر من الدور الخاصة بالاجتماعات والزوايا ، بل لقد وضع لها ـ تقليدا للطرق الصوفية أيضا ـ أركان ومراسم •

وكان المنتسبون اليها ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة فمنهم

رجالات الدولة ، وأغنياء التجار ، ومنهم المشايخ والعلماء وأرباب الحرف ومنهم الحرافيش ومن لا عمل لهم •

وأخذ الصناع فى المدن ينضمون الى صفوف هذه الجماعات رويدا رويدا ،ولكن جمهرة المنتسبين اليها فى المدن الكبرى كانت من صغار السن من « صبيان » أرباب الحرف •

ولقد أكدت هذه التشكيلات وجودها فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر فى الفترات التى اختل فيها سلطان الدوله ، ولعبت دورا هاما فى حياة المدن ، وصارت بحيث يحسب حسابها دائما كعامل سياسى •

ولن أكلمكم اليوم عن هذه التشكيلات التى لم تتكشف بعد ظروف نشوئها ولا ماهيتها رغم التدقيقات التى يقوم بها عدد من العلماء منذ خمسة عشر عاما ، لأننا سنعود الى هذا الموضوع فى المحاضرة القادمة •

٤ ـ المستوى الفكرى

وأرجو أن أكون قد وضحت ـ بالخطوط العريضة وبقدر الامكان ـ الظروف السياسية الداخلية والخارجية التى عاشها أتراك الأناضول أثناء تأسيس الدولة العثمانية ، وأن أكون شرحت أيضا بنية المجتمع التركى فى تلك الحقبة •

ان زيادة هذين الأمرين وضوحا تقتضى أن أتناول فى المحاضرة القادمة ـ عند بحثى فى تأسيس الدوله العثمانية ـ مسائل أخرى أساسية لم نتناولها من قبل ومع هذا ، فانى مستأذنكم الآن فى كلمات ألخص فيها الايضاحات التى ألقيتها اليوم ، وأعرض ما ترتب عليها من نتائج •

كان المجتمع التركى الأناضولى فى القرن الثالث عشر من أرقى مجتمعات العصور الوسطى المتأخرة من ناحية توزيع العمل Répartition du travail والتطور الاقتصادى ، وكانت دولة سلاجقة الروم ـ وهى التعبير السياسى عن هذا المجتمع ـ دوله مركزية النظام ذات نظم محكمة تستمد أصولها من التقاليد الادارية والسياسية التى سادت فى دولة السلاجقه الكبار (التى بسطت سلطانها فى القرن الحادى عشر على أراض شاسعة تمتد من تركستان الصينية الى سواطىء مرمرة ، ومن قافقاسيا الى خليج البصرة) ، وكان أناضول السلاجقه ـ الى هذا التقدم الادارى ـ متقدما الى حد ما من الناحية الثقافية فبالاضافه الى الكتاتيب التى أسست الى جوار المساجد لتعليم الأطفال القراءة والكتابة ، كانت المدارس منتشرة فى كل مكان ، ولقد زاد النشاط الفكرى بخاصه بعد أن توطن الاناضول كثير من العلماء والمتصوفة والشعراء الذين هاجروا من الشرق أمام الزحف المغولى ، وبفضلهم اكتسبت مدارس السلاجقة ـ باستحقاق ـ ما كان لها من الشهرة •

ولما كانت الدراسات الجادة عن الحياة الفكريه فى اناضــول القرن الثالث عشر لم نبدأ الا فى هده السنوات الاخيرة فان ماهيه النشاط الأدبى والفلسفى لم تقدر بعد حق قدرها ، على حين ان بيئة آسيا الصغرى كانت قادرة بحكم اصالها بمختلف التفـاوت ، وبراءتها من النعصب على أن تهضم اوسع الأفكار الفلسـفيه (٢٥) ، ولقد تمخضت الحركات الفكريه التى بدأت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر بالأناضــول عن بعض الشخصـيات الكبيرة التى عاشت فى القرن الثالث عشر ، ونكتفى ـ اقتصادا فى تعداد الاسماءـ بأن نذكر من بينهم الشاعر « التركى » الخالد صاحب المنوى جلال الدين الرومى .

ولقد كشفت فى كثير من كتاباتى عن مدى الرقى الذى بلغته الحياة الفكريه واللغة التركيه وآدابها فى تلك الفترة ، وهو رقى يفوق كثيرا ما يظن به الآن (٢٦) .

---

(٢٥) H. Corbin, Pour L'anthropologie philosophique, Recherches philosophiques, Vol. II, 1932 — 1933, P. 376.

(٢٦) كوبريلى زاده محمــد فؤاد : تورك أدبياتى ـ تاريخى مجلد (١) ١٩٢٨ ص ٢٤٣ ـ ٢٥٢ ، ٢٨١ ـ ٣٢٢ . توركأدبياتنده ايلك متصوفلر ، استانبول ١٩١٩ ص ٢١٣ ـ ٢٨٦ .

وقد حلل هذا المؤلف الأخير كل من L. Bouvat فى :
Revue du Monde Musulman, Vol. XL, III, 1921, P. 236
— Clement Haurt فى
Journal des savants, XX, nos 1 — 2, 1922 P. 5,
Th. Menzel
Korosi Csoma — archivum, Vol. II, no, 4 P. 281 — 310, no 5, P. 345 — 357, no 6, P. 406 — 422.

ويمكن بعد كل ما تقدم أن نقرر ـ فى ثقه تامه ـ أن المجتمع التركى الأناضولى، وان لم يكن له ـ تحت حكم الايلخانيين ـ وجود سياسى متماسك ومستقل فقد كانت به كل الامكانيات المادية والمعنوية التى تكفل لأى تشكيل سياسى صغير أن يتطور ليصبح ـ بدوره ـ دولة كبيرة ، ولقد كان عدد من هذه التشكيلات السياسية الصغيرة قد نشأ فعلا فى أماكن نائية بالأناضول قصرت عنها يد السلطة الايلخانية . وشاءت الظروف السياسية الداخلية والخارجية التى تحدثنا عنها فى بداية المحاضرة أن تظهر هذه الدولة الكبيرة فى غرب الأناضول دون سائر نواحيه ، وسنبين فى المحاضرة القادمة بأى العوامل التاريخية وعلى أى صورة تحقق هذا الاحتمال .

القسم الثالث

الحياة على الحدود
و
تأسيس الامبراطورية العثمانية

بيّنا الاوضاع السياسيه والاجتماعية التى كان عليها الأناضول حين ظهر العثمانيون لأول مرة على مسرح التاريخ تشكلا ضعيفا وبدائيا ، فى الزاوية الشمالية الغربية من آسيا الصغرى ، ولكن ما زالت بين أيدينا مشكلات تتصل عن كثب بقيام الدولة العثمانية وتتطلب منا الفحص ، ولعل أولى هذه المشكلات أن تكون المشكلة الاتنوغرافية التى ما زالت موضع جدل ولم نصل فيها الى نتيجة مرضية حتى الآن ، وهذه المشكلة هى : ما العنصر التركى الذى كان بمثابه النواة الأولى للامبراطوريه العثمانية ؟ أو بعبارة أخرى: الى أى شعبة تركية ينتمى هذا العنصر ؟

ان حل هذه المشكلة الخلافية سيلقى الضوء على مشكلة خلافية أخرى لم تحل أيضا رغم احتدام الجدل حولها ، وهى : فى أى زمان وفد العثمانيون على الاناضول ؟

ولكن ، ليكن حل هاتين المشكلتين كيفما يكون ، فليستا ـ عندى ـ فى الدرجة الاولى من الأهمية لتوضيح كيفيه قيام الدولة العثمانية ، وانما تناولتهما فى محاضرتى هذه القصيرة لابيّن أنهما لا تستحقان ما يعلق عليهما من أهميه ولأكشف أيضا عن فساد ما ورد حولهما من نظريات •

ان الذى نقصد اليه أساسا فى هذا المقام هو القاء الضوء على الحياة فى مناطق الحدود الاناضولية ، وبخاصة الغربية منها فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، لأننا ـ فى الحق ـ بحاجة ماسة الى تحقيق هذه المسألة لكى نتم الايضاحات التى عرضناها فى المحاضرة الماضية عن التاريخ الاجتماعى للأناضول ولكى نعرف أيضا ـ بالاضافة الى ظروف نشأة العتمانيين ـ الظروف التى نشأت فيها كل الامارات التركية الأخرى التى ظهرت فى مناطق الحدود.

ولا شك فى أن وقوفنا على البيئة الاجتماعيه التى ولد فيها التشكل العثمانى الصغير سييسر علينا بيان العوامل الداخلية والخارجية التى ساعدت على تطوره سريعا ليصبح دوله قوية .

١ ـ قبيلة عثمان

تجمع المصادر القديمة على أن العنصر الذى أنجب أسرة عثمان والذى يعتبر ـ بالضرورة ـ النواة الأولى للدولة العثمانية ، عنصر غزى أى تركمانى لا يفترق فى ذلك عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة .

وأما ما ذهب اليه بعض المؤرخين المحدثين من أن العتمانيين ينتمون الى بطن آخر من بطون الترك يقال له قانكلى فرأى لاأساس

له [1] ؛ وقد سكتت بعض المصادر فلم تذكر الى أى قبيله من قبائل الغز ينتمى العثمانيون ، ومن هذه المصادر الكتب المجهوله المؤلف المعنونه ب (تواريخ آل عثمان) وكتاب (بهجة التواريخ) لشكر الله ، وكتابا عاشق باشازاده وأوروج بك ، فقد اقتصرت هذه الكتب جميعا على القول بأن العثمانيين ينتمون الى الغز .

ولكن مصادر أخرى صرحت بانتماء العثمانيين الى قبيلة من قبائل الغز هى قبيلة (قايى) . ومن هذه المصادر كتاب (سلجوقنامه) الذى كتبه يازيجى أوغلى فى عهد مراد الثانى وقد أثنت مصادر أخرى على بطن (قايى) وخصته من بين البطون الغزية بالأصالة والشرف ونسبت اليه العثمانيين ، ومن هذه المصادر كتب الأنساب ككتاب جام جم آيين ، وبعض مجموعات الحكايات ككتاب (دده قورقود) ، وكتب التواريخ مثل دستور نامه أنورى وكتابَى روحى ولطفى ، وهشت بهشت لأدريس البدليسى .

وقد قبلت معظم المصادر التى كتبت مؤخرا فى الشرق والغرب القول بانتمائهم الى قبيلة قايى ، والواقع أن انتماءهم الى الغز لا يتنافض مطلقا مع انتمائهم الى قبيلة قايى ، وفوق ذلك فان النص

(1) R. Grousset : Histoire de l'Asie, Paris 1922, Vol. I, P. 273 — 274.

« ينتمى مؤسسو الدولة العثمانية الى الأتراك الغز الذين يقطنون منطقة الآرال الخزرية أو ينتمون الى قامكلى Vol. III, P. 423.

« وفى ذلك الوقت كان رئيس صغير من رؤساء عشيرة قانكلى الخ

على اسمائهم الى قايى موجـود فى مصادر أقـدم من المصـادر التى لا تنص على ذلك ، وقد كتب بعض هذه المصادر والتقاليد الغـزيه لم تمت بعد فى الاناضول ولا شك فى أن قدم المصادر ، ثم اختراع الحكايات عن مناقب قبيلة قايى يرجحان انتماء العثمانيين اليها اذ لولا أن العثمانيين كانوا يعتبرون أنفسهم من قبيلة قايى فما كانت الكتب التى حررت فى قصورهم لتجشم نفسها اختراع هذه المناقب •

وربما خطر لنا أول وهلة أن الحكام العثمانيين ادعوا نسبهم الى قايى لأهميتها بين قبائل الغز ولكن هذا خطأ فان الروايات الغـزيه تقول ان الحكام يخرجون أكثر ما يخرجـون من قبيـله سالور أو قبيله قنق Kinık، ولو سـاء الحكام العثمانيـون أن ينتحلوا نسـبا لعزوا أنفسهم الى احـدى هاتين القبيلتين ، ولا يغيبن عن بالنـا أن التقاليد العشائرية القـديمة لم تكن قـد نسيت تماما عنـدما وضعت رواية قايى فى عهد مراد الثـانى[٢] ومن العبث أن توضـع شجرة نسب كاذبة تناقض الأفكار التقليديه فى مجتمع البدو •

وبناء على ذلك يمكن أن نقبل أن عثمان (الذى تسمت باسمه الدولة) وأباه أرطغرل كانا على رأس عشيرة ولو صغيرة من عشائر قايى •

---

(٢) عبد القادر : تورك قبلة حقوقينك بعض مسألة لرى حقنده : تورك حقوق واقتصاد تاريخى مجموعه سى جلد (١) ١٩٣١ ص ١٠٥ — ١٢١ •

ولا أساس لما قيل فى السنوات الأخيرة من أن عثمان ليس ابن ارطغرل وانه ينتمى الى العنصر الحضرى من آهل السنة [٣] .

وأما الرواية التى تصل نسب العثمانيين بجد الترك الاسطورى أوغوزخان فان لها نظائر تعيش حتى يومنا هذا فى البيئات التركمانية فيما وراء بحر قزوين وهى ـ فيما يختص بالعثمانيين ـ رواية أسطورية خالصة لا تخص الاسرة الحاكمه وحدها بل تخص كل قبيلة قايى [٤] .

ولما عظم شأن الدولة العثمانية اخترعت للعثمانيين أنساب جديدة تهدف الى تحقيق غايتين : اضفاء مزيد من الشرف على العثمانيين ، واظهار توددهم الى بعض عناصر الامبراطورية .

وأما الروايات التى تعزو العثمانيين الى أسرة كومنين أو الى النبى صلى الله عليه وسلم فليست من التاريخ فى شىء [٥] .

وهكذا تكون النتيجه الوحيدة التى استطعنا الوصول اليها هى أن العشيرة الصغيرة التى خرج منها عثمان تنتمى الى قبيلة قايى .

وقد أخذ العلامه الألمانى ماركوارت بهذا الرأى ولكنه يصر

---

(٣) فى : J. H. Kamers : Werwas Osman ? Acta Orientalia, Vol. VI, P. 242.

(٤) أبو الغازى بهادرخان : شجرة تراكمه .

(٥) كررها Ch. Diehl. فى : La Société Byzantine à l'époque des Comménes, Paris 1929, P. 41.

فى كتاب مهم من كتبه على أن يدعى أن قبيله قايى هـذه مغـوليه لا تركية ، بل لقد حاول أن يستنبط من هذه الدعوى نتائج لا يمكن أن تليق بمؤرخ جاد .

وعلة ذلك أن ماركـوارت خلط بين القبيـلة المغوليه المسماة « قاى » والقبيلة التركية قايى أو ــ بالرسم القديم ــ قاييغ وتوهم أن هذه هى تلك بعينها (٦) . ومع أن الأستاذ بول بليو(٧) قد قرر بما عهـد فيه من نفاذ البصـيرة أن استنتاجات ماركوارت الخاصـة بمسألة قايى تحيط بها الشكوك فان K,Brockelmann,J. Nemet وبعض الثقات من أصحاب الدراسات التركية يقبلون قول ماركوارت كأنه الحق(٨)، ولقد نقدت أنا هذا الخطأ الذى انزلق اليه ماركورت فى كتاب لى ظهر سنة ١٩١٩ (٩) ، ثم زدت هذه المسأله تفصيلا فى مقال لى فى سنة ١٩٢٥ (١٠) ، وكان المأسوف عليه الاستاذ بارتولد يبدى ــ فى كثير من كتبه أنه يشاركنى وجهة نظرى (١١) .

ولم يكن لانتماء العثمانيين الى الغز لا الى المغول أى تأثير على

---

(٦) W. Bang und J. Marquardt : Ostturkische Dialekstudien, Berlın 1914, P. 187 — 197.

(٧) P. Pelliot : Apropas des Comans, J. A. 11 serie t. XV, 1920 P. 136.

(٨) I. Nemeth ZDMG no 75, 1921, P. 278.

(٩) تورك ادبياتنده ايلك متصوفلر .

(١٠) أوغوزلرك انتولوجيسى أوزرينه تاريخى نوطلر توركيات مجموعة سى جلد (٦) ١٩٢٥ .

(١١) انظر مادة قايى فى دائرة المعارف الاسلامية .

مجرى الحوادث التاريخية كما بينت ولا أساس للاستنباطات المتعلقه بتاريخ اللغه والتى يحاول بعض علماء اللغــات ترتيبهـا على كون العثمانيين من قبيله قايى ، لأن أرطغرل وعثمان وعشيرتهما الصغيرة لم يكونوا يشكلون كتله كبيرة من قبيله قايى الغزيه بل ان القسم الذى وفـد من قايى مع السـلاجقة تفرق كما بينت فى المحـاضرة السابقة فى أرجاء الأناضول كما لم يتفرق بطن من البطون الأخرى الوافدة ، ومع أننا نعلم ـ فى تاريخ السلاجقه ـ أن بعض العشـائر الغزية قد غيرت مواطنها وكونت اتحادات (سياسية) على شىء من القوة ، فاننا لم نصادف حركة واحدة تحمل اسم قايى لا قبل قيام العثمانيين ولا بعده .

ولا بد لنـا ازاء النقص الظـاهر فى المصادر الخاصه بتاريخ الأناضول من أن نلجأ الى الطوبونيميا ، ولن ندخل ـ ونحن نتناول هذا الموضوع ـ فى التفصيلات الدقيقة ولكننا نعرض بايجاز النتيجة التى توصلنا اليها :

كانت قبيلة قايى ، وهى تكون منذ القدم شعبة هامة من شعب الغز تشارك الغز مضطربهم الواسع أيام السلاجقة ، وهاجرت من الشرق الى الغرب ، وقد توطن قسم من قايى بين ظهرانى التركمان فيما وراء بحر الخزر ، وتوطن قسم فى مازندران ، وقســم فى أذربيجان وأران (جنوب قافقاسيا) ، وامتزجوا فى هذه المـواطن بقبائل تركية أخرى؛ومن المعروف أن القسم الذى ورد على الأناضول

تقسم وتفرق ووطن بدوره في أماكن مختلفة ، وما زال عدد من القرى المتباعدة في الاناضول يحمل اسم قايى ، ففى شمال الاناضول توجد قرى تحمل هـــذا الاسم فى المنطقــة المحيطــة بأرزنجـان وصوشهرى،وفى أماسيا وجوروم وايلغار وجانقيرى وكره ده وبولى ودوزجه وكذلك فى اسكيشهر وميخاليج وأورخان ايلى •

وفى جنوب الأناضول توجـــد مجموعه أخرى تحمل نفس الاسم فى منطقه كيليكيا ، واسبرطة وبوردور وفتحية • وفى اتجاه الغرب توجد قرى أخرى تحمل نفس الاسم فى دنكيز لى ومغـلة وآيدين وأوده مش ، وتدل أسماء هذه القرى على مواطن اسكان قايى كما تدل على الطرق التى سلكوها فى هجرتهم نحو الغرب •

ويتبين من هذا أن الشعبة القليلة الأهمية التىأحاطت بأرطغرل ثم بعثمان من بعده ، والتى كانت بقية ضئيله من قايى الدين تفرقوا فى كل الاتجاهات، لم تؤثر ـ مع أنها النواة الاولى للتشكل السياسى الجديد ـ فى صبغة الدوله ، وربما كان الدور السـياسى الخالص لهذه الحفنة من الترك (وهو دور يعتمد كثيرا على الصدفة) هـو أنهم أنجبوا رئيس الدولة وانهم كانوا سندا له فى بداية الامر ، ومن المستحيل من كل وجهات النظر أن يكونوا قد أثروا ـ كما يدعى ـ فى القاء أسس اللهجة العثمانية •

ونستطيع أن نقرر بصورة قاطعة أن فصل هذا القسم القليل من العشيرة عن سائر الترك الموجودين فى غرب الاناضول فى ذلك

الوقت ، ثم محاولة اضفاء بعض الصفات عليهم او اسناد بعض التأثيرات الخاصة اليهم ، كل أولئك مستحيل من وجهة النظر التاريخية •

ونستطيع الآن وقد أثبتنا أن العثمانيين ينتمون الى قايى وأن قايى قد وفدت على الاناضول مع السلاجقة الفاتحين ، ان ننتقل الى تحليل الروايات المضطربة المتناقضة الخاصة بورود أجداد العثمانيين الى الاناضول •

تقرر المصادر المحررة قديما فى جملتها أن أجداد العثمانيين قد وفدوا مع السلاجقة الى شرق الاناضول ، ولكن المصادر الأحدث تقرر أن العثمانيين كانوا يقطنون بجوار ماهان فى خراسان ، وأنهم هاجروا الى الغرب أمام زحف جنكيزخان ، ويؤلف بعض المؤرخين بين هاتين الروايتين فيذكرون ان العثمانيين وفدوا أولا على خراسان ثم على خلاط ثم اتجهوا غربا ، وقد حاول بعض المؤرخين الاوربيين ابتداء من هامر فماركوارت الى جيبونز ان يستنبطوا من هذه الروايات المضطربة التى حررها كتاب الحوليات بعض النتائج ، وما زال من يعتمد على هؤلاء من المؤلفين المتأخرين الشرقيين والغربيين يقررون ان العثمانيين جاءوا الى غرب الاناضول بعد الغزو المغولى•

ذلك ، على حين أننا اذا نظرنا الى ايضاحاتنا السابقة التى تقرر أن العشيرة التى ينتمى اليها العثمانيون هى قبيلة قايى ، وأنها جاءت الى الاناضول بعد الفتوحات السلجوقية الأولى ، وأنها تفرقت بعد ورودها أقساما توطنت أماكن متباعدة ، لظهر لنا أن حكايات الهجرة

العمانية التى تفيض بها الحوليات القديمة ليس لها أساس .

والواقع أننا اذا فكرنا فى قيمة أقدم المصادر التى ذكرت هذه الروايات المختلفة، واذا أخضعنا هذه الروايات نفسها للنقد التاريخى فلا يمكن أن نصل الى هذا الرأى .

ولكن ليس من هذه المسائل ـ لحسن الحظ ـ مالا يستغنى عنه ـ كما قلت من قبل ـ فى دراسة قيام الدولة العثمانية .

ولنقرر الآن النتيجة الثابتة المستخرجة من كل ما تقدم .

فى أواخر القرن الثالث عشر كان ارطغرل ثم عثمان من بعده رئيسين لعشيرة صغيرة من عشائر الحدود تنتمى الى قبيله قايى ، وكانت هـذه العشيرة تخضع نظريا لا عمليـا لسلاطين قونية ثم للايلخانيين ، وكان موطن هذه العشيرة هو منطقة اسكيشهر الواقعة بشمال غرب أفروجيا على الحدود التركية البيزنطية ، وفى نفس ذلك الوقت كان على حدود الاناضول الغربية عدد من أمراء الحدود يغيرون ـ كلما وجدوا الفرصة ـ على حدود بيزنطة ويعملون فيها السلب ، بل كان من بينهم من استولى على بعض الاستحكامات والقصبات وأسس القواعد لتشكلات سياسية جديدة .

فكيف استطاع عثمان اذن ، فى مثل هذه المنطقة ، وبين هـذه القوى المنافسة أن يؤسس تشكلا سياسيا كالدولة العثمانية ؟ ولم ؟

لا بد لفهم ذلك من الوقوف قبل كل شىء على الحياة الداخلية فى مناطق الحدود وعلى ظروفها الاجتماعية والدينية والاقتصادية وعلى عواملها السياسية .

٢ ـ الحياة فى الحدود

(أ) التشكيلات العسكرية والادارية

أقام الامويون والعباسيون بسبب صراعهم المستمر مع البيزنطيين تشكيلات خاصة على الحدود ، وأقام سلاجقه الأناضول فيما بعد تشكيلات مماثلة هى تشكيلات الأوج على الحدود الشرفيه والغربية.

وكانت هذه التشكيلات التى أقيمت للدفاع عن الحدود ضد غارات العدو وللاغارة كلما سنحت الفرصة على أراضيه للحصول على الغنائم تعتمد ـ بطبيعة الحال ـ على عشائر التركمان ، حتى لقد كان كاترمير [١٢] ومن تبعه من أمثال باربييه ده مينار [١٣] وستانيسلاس كويار [١٤] وشفر [٥] وبلوشيه [١٦] ونيكلسون وكليمان هيوار [١٧]

(١٢) Histoire des Mongols de la perse, Paris 1836, P. 242 — 243.

(١٣) Recueil des Historins de la Groisades Historiens Orientaux, Vol. II, Part I, P. 23; Vol IV P. 438, 452. 457.

(١٤) Géographie d'abulfeda, t. II, seconde partie P. 134.

(١٥) Recueil de textes et de traductions, t. I, Paris 1889, P. 4[illegible]

(١٦) Kamal al-Din, Histoire d'alep, Paris 1900, P. 107. Blochet,

وقد خلط بين كلمتى أوج وأوغوز ورآهما علما على شيء واحد دون أى سند تاريخى .

(١٧) أنظر تاريخ كزيده والجزء الثانى من : Les Saints des derviches tourneurs.

يظنون جميعا ـ كلما صادفتهم كلمة أوج فى نص اسلامى ـ أنها علم على احدى العشائر التركية ، ولقد صححت أنا هـذا الفهم الخاطىء فى احدى مقالاتى [18] .

وكان من أهم حاميات الأوج السلجوقيه فى القرن الثالث عشر تلك التى تقيم على شاطىء البحر الأبيض فى المنطقة التى تضم حدود أرمينية الصغرى وبعض الموانى من أمثال أنطاليا وعلائيه ، ولكن أكبر هذه الحاميات أهمية كانت فى غرب الأناضول على حدود امبراطوريه نيقيه .

ولقد كانت الدوله السلجوقيه تعين بعض القواد للدفاع عن البلاد الساحلية سواء ما وقع منها على البحر الابيض او البحر الاسود ، وكانت تجعل تحت امرة هؤلاء القواد بعض (أمراء السواحل) .

ولكن الحدود البرية كانت أعظم أهمية من الحدود البحريه، وكان السلاطين يستدعون بعض قوات الحدود ليقووا بها ـ عند الحاجه ـ جيوشهم وكانت قوات الامداد هذه مكونة من العشائر البدوية تحت قيادة رؤسائها .

وجرت الحكومة المركزية على أن تضفى على أى رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمره ويلتحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب

---

(١٨) أوغوزلرك انترلوز جيسى حقنده تاريخى توطلر تركيات مجموعة سى جلد ١ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

« أوج بكى » أى حاكم الحدود ، ولكنها كانت تجعل فوقه ـ من بين رجالها ـ رئيسا أو عددا من الرؤساء يلقب كل منهم بلقب«أوج اميرى » أى أمير الحدود •

وتذكر المصادر التاريخية ـ بالاضافة الى أسماء عدد من أسر (أمراء الحدود) التى عينتها الحكومة المركزية مثل أسر (ياغى باصان) وعلى بك وصاحب أتا ـ أسماء عدة من (حكام الحدود) مثل غازى محمد بك وسالور بك والياس بك ، بل تذكر أن من هؤلاء الحكام من عظم أمره بحيث صار يطاول الحكومة المركزيه ويخلق لها المشكلات الخطيرة •

وكان هؤلاء الحكام الذين يؤدون للدوله ضرائب نقديةوعينية يترددون على العاصمة لأسباب كثيرة منها ـ بطبيعة الحال ـ تسديد الحسابات •

وكان لغازى محمد بك الذى ذكرناه من قبل سلطان كبير على القبائل المتكتلة فى المناطق الساحلية مثل أنطاليا وعلى الحدودالجنوبية الغربية على شواطىء نهر مندريس،وقد اختار غازى محمد القلنسوة البيضاء [19] غطاء رأس لقوات الحدود على حين كان التركمان بعامة يلبسون قلنسوة حمراء •

واذا كان أصل غطاء الرأس الابيض (آق بورك) ، الذى

(١٩) Les Saints des derviches tourneurs t. II, P. 10.

ذكره ابن بطوطة عند حديثه عن أهل الفتوة ، والذى كان يلبسه أيضا السلطان العثمانى أورخان ورجاله ، اذا كان أصل هذا الغطاء ما زال خلافيا حتى الآن ، فلا أظننى مخطئا أن رددت منشأه الى تلك القلنسوة البيضاء التى ابتدعها محمد غازى •

ومع أننا لا نستطيع أن نقول قولا قاطعا لا فى مسألة العلاقات بين نظام الادارة فى مناطق الحدود ونظامها فى مركز الدولة ولا فيما شابه هذه المسألة من مسائل ، فاننا ـ مع هذا ـ نعرف تماما أن تركمان الأوج ـ ولم يكن للحكومة المركزية سلطان عليهم ـ كانوا ـ حتى فى القرن الثانى عشر ـ يغيرون لحسابهم الخاص على الأراضى البيزنطية ويعودون منها بالغنائم وبآلاف الاسرى ونعرف أيضا أنهم كانوا يحققون لأنفسهم منافع مادية من هؤلاء الأسرى لأنهم كانوا اما أن يطلقوا سراحهم لقاء فدية كبيرة ، واما أن يبيعوهم بحسب التقليد الذى كان يسود العالم كله فى العصور الوسطى •

وكانت الفدية تعظم كثيرا فى بعض الأحيان بحسب منزلة الأسير السياسية والاجتماعية •

ولقد كانت هذه العشائر التركمانية المقاتلة التى صنعت بجيش فردريك بربروس أثناء اجتيازه الأناضول ما لم تصنع الجيوش السلجوقية النظامية ، والتى كانت تتقدم منذ أيام أسرة كومنين لكى ترعى قطعانها فى منطقة أدرميد ، كانت هذه العشائر تسبب للدولة السلجوقية كثيرا من المشكلات السياسية الخارجية ، بل ربما جرتها

رغم ارادتها ـ الى حروب مع البيزنطيين [٢٠] ، ولكن الصـــدامات والغارات على الحدود لم تكن تخل ـ طبقا للمبادىء الحربيــة فى ذلك الوقت ـ بما يكون مستتبا بين الدول من السلام ، الا أن تتذرع بها احدى الدول فتنقض السلم [٢١] .

ومع أن امبراطورية نيقيه كانت على وئام مع سلطنة قونيه فانها غيرت خططها الدفاعية على الحدود لتقوى على صد غارات التركمان ، ولقد كانت بعض الخطوط الدفاعية أقيمت منذ الغزوات العربيــة الأولى وكانت هذه الخطوط مكونة من مجموعة المواقع الاستراتيجية المحصنة على الحدود وفى الدروب بخاصة وكان يحافظ عليها فيالق هيئت ابتداء لهذا الغرض ونعرف باسم (akritai)

ولكن هذه الخطوط الدفاعية بدلت من بعد قوة ضعفا باختلاف الأعصر ، وكثرة التغيرات ، وتقهقرت فى عهد السلاجقة نحو الغرب ، حتى اذا كان النصف الثانى من القرن الثانى عشر أعيد تنظيمها على أسس جديدة فى عهد أسرة كومنين [٢٢] . ولكنه ما لبث فى القرن الثالث عشر أن تمركزت كلها فى جبال بيتنيا أى فى الزاوية الشمالية الغربية من آسيا الصغرى .

وقد استطاعت هذه الفيالق التى تذكر فى المصادر الاسلامية

---

(٢٠) N. Iorga, Histoire de la vie byzantine, vol. III, P. 121.

(٢١) F. Chalandon, Les Comnénes t. II, Paris 1912. P. 38

(٢٢) نفس المرجع ص ٥٠٠ F. Chalandon :

باسم الخرائطه أى Akritai والتى كانت تمطع الأراضى ، وتعفى من الضرائب،استطاعت أن تقوم بمهمتها خير قيام فى عهدامبراطوريه نيقيه .

ولكن نقل العاصمة الى بيزنطه أدى الى اهمال وسائل الدفاع مدة طويلة .. وحسبك أن ميشيل باليولوغ ، من أجل أن يجد ايرادات لخزانة الامبراطورية التى أجهدتها النفقات المتزايدة ، قد صادر قسما كبيرا من الاراضى التى كان ريعها وقفا على الخرائطة ، فلما أعلنوا العصيان ، بعد أن زلزلت دعائمهم الاقتصادية بطش بهم فى غير رحمة (٢٣) .

وليس بمستبعد أن يكون قسم من الخلط العنصرى الذى يتكون منه الخرائطة قد انحاز الى العدو فى الجهة المقابلة ، وخاصة العشرة الآلاف عائلة من الترك القومان المتنصرين الذين استخدمهم الامبراطور فاتاتزيس Vatatzes فى النصف الأول من القرن الثالث عشر من الروملى وأقامهم على تلك الحدود (٢٤) .

ولقد مكن ضعف الدفاع عن الحدود البيزنطية حكام الحدود من الترك ــ وخاصة بعد أن فقدت نيقيه صفتها كعاصمة ــ من أن يوسعوا أراضيهم بالتدريج ولكن بصورة نهائية نحو الغرب . كما

---

(٢٣) A. A. Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine Vol. II, P. 282.

(٢٤) P. Wittek, Das Furstentum Mentesche, Istanbul 1934 P. 13.

ساعد أيضا على تكوين التشكلات السياســية الجديدة على الحدود البيزنطيه وبخاصة حين ضعف الحكم السلجوقى تحت وطأة الحكم المغولى •

ومع أن بكوات العشائر التركية بالحدود كانوا خاضـعين من الناحية الشكلية للسلاجقة الا أنهم لم يكونوا يتحرجون ـ اذا أتيحت الفرصة ـ من شق العصا ، ومن التصرف باستقلال ، كما لم يكونوا يؤدون الضرائب ـ فى أكثر الاحيان ـ الا بعد أن تهددهم الدولة تهديدا فعليا ، وكانوا ـ اذا اصطرع الأمراء على العرش ـ انحازوا الى أحدهم فزادوا الفتن اشتعالا كما كانوا ـ الى كل هذا ـ ملاذا للمتمردين وعونا لكل حركات العصيان •

وفى فترات ضعف الادارة المركزيه ، كانت قوافل التجـــار الأغنياء بداخــل الأناضـــول عرضة لأن يغير عليها هؤلاء البكوات فيسلبوها ، ولقد كانوا ـ حتى قبل أن يستولى الظاهر بيبرس عـلى قيصرية ، أى قبل أن تقوى قبضة الحكم المغولى فى الاناضول ، كانوا لا يعترفون بالادارة السلجوقية المركزية،وكان السلاجقه يضطرون الى سوق الجيوش اليهم ومع أن هؤلاء البكوات اتخذوا موقفا أكثر عداء من الايلخانيين فانهم أفادوا فى نفس الوقت من ضعف الادارة المركزية وعملوا على تقوية نفوذهم المحلى ، ولا أدل على ذلك من أن أسرة صاحب آتا الذى عين أميرا على الحدود فى عهد معين الدين

بروانه (أى قبل أن يأتى أباقا لينتقم للمغول من غزوه بيبرس) قد أقطعت كوتاهية وصاندقلى وكوركورم وأقشهر .

وفى بدايه القرن الرابع عشر استطاع الأمير جوبان ومن بعده ولده الوالى الايلخانى دميرداش أن يوطدا نفوذهما فى مناطق الحدود طورا بالسياسة وطورا بحـــد السيف ، ولكنهما كانا يعترفان دائما بدول الحدود كدول تابعة ويذكر مصدر من مصادر منتصف القرن الرابع عشر أن دول الحدود الاناضوليه الخاضعه للايلخانيين،والتى كانت تدفع لهم الجزيه هى دول أولاد قرمان وأولادكرميان وأولاد حميـــد ، وأسرة اينانج ، وأورخان وأمور بك ، ودول سـينوب وقسطمونى وكرهده وبولى [٢٥] .

ولئن كانت بعض المسكوكات والنقوس وبعض الفقرات الواردة فى مسالك الأبصار تدفع الى الظن بأن الحكم المغولى لم يكن قد زال نهائيا عن امارات الحدود حتى فى فترة اضمحلال الايلخانيين فربما كان السبب فى ذلك هو أن تلك الامارات كانت تتبع سياسة الملاينة والوئام مع دولة أرتنا القويه التى ورثت الايلخانيين فى الأناضول.

ولم تكن مناطق الحدود تضم مشاتى البدو أو أنصاف البـدو ومصايفهم فحسب ولكن كان بها ـ مع وجود المصايف والمشـــاتى

---

(٢٥) تورك حقوق واقتصـــاد تاريخى مجموعة سى جلد (١) ص ٣٣ .

الخاصة بكل عشيرة ــ عــدد كبير من القرى والقصبات الصغيرة ، وبعض المواقع الحصينة فى الاماكن الحساسة بل كان بهـا ــ على قلة ــ مدن كبيرة الى حد ما لا تبعد كثيرا عن الحدود ، وهى المدن الحصينة التى استولوا عليها من البيزنطيين وجعلوا منهـا عواصـم لاماراتهم •

واذا كنا نرى أن قرى مسيحية قد وجدت فى المناطق التركية، وأن النصارى قد اختلطوا بالمسلمين فى مدن تلك المناطق ، فقد كان بعض المسلمين قد توطن أيضا فى الأراضى البيزنطية •

(ب) الشعب

عناصره الاثنوغرافية والدينية

كانت الأرض مقسمة الى اقطاعات متفاوتة القيمة ، يعطى أفلها دخلا لجند الحدود الذين يحملون ــ طبقا للتقاليد الاسلامية لقب « غازى » أو ــ طبقا للتقاليــد التركيــة ــ لقب « آلب » ، وكانت اقطاعات هؤلاء الجنود وراثية تنتقل الى أولادهم من بعدهم •

والى جانب هذه الفئة التى تم تحولها من البداوة الى الحيــاة الزراعية هبطت فى مناطق الحدود جماعات من الصعاليك جاءت من فجاج مختلفة من العالم التركى الاسلامى تتلمس فى تلك المنـاطق رزقا أى رزق •

وجماعات أخرى من الأتراك (البدو) زحمها الضغط المغولى،

فتركت ديارها فى وسط الأناضول وانطلقت مع عائلاتها تبحث عن أراضى تتوطنها ، وعن مراع لقطعانها •

ولما اضطربت أحوال الرعايا البيزنطيين لثقل الضرائب وانعدام الأمن فى أراضيهم وعجز الامبراطورية عن الدفاع عنهم مع أثقالهم بالضرائب آثر بعضهم الدخول فى طاعة بكوات الحدود من الترك ليأمن ـ لقاء جزية خفيفة ـ على نفسه وماله • ولم تتغير الظروف على هذا النحو الا بعد أن أخذت الامارات التركية تتحول بالتدريج من عشائر تحيا على السلب والنهب الى تشكلات سياسية منظمة تتكفل بمصالح رعاياها •

وكان لامتداد الحدود التركية باستمرار نحو الغرب عوامل كثيرة منها الفوضى الادارية والسياسية الناتجة عن المعارك حول العرش فى بيزنطة ، ومنها المظالم التى أوقعتها فئات الجند المرتزقة المستدعاة لمساعدة الدولة كفئة الكاتالان Catalans ومنها العداوة ضد اللاتينية والكاثوليكية •

وكان العلماء ممن درسوا فى العواصم الاسلامية بايران ومصر والقرم ومعهم طائفة من أعضاء البيروقراطية السلجوقية والايلخانية المهاجرة من وسط الاناضول يضعون معا ـ وبالتدريج ـ أساس الجهاز الادارى فى امارات الحدود ، ويقيمون فى نفس الوقت المؤسسات الثقافية ، وكانت مناطق الحدود كلما تقدمت ، تطورت الحياة فيما

وراءها من المدن والقرى وزادت كثافة السكان ، وعظم النشاط الأقتصادى •

ولما كانت مناطق الحدود هذه واقعة فى أقصى «دار الاسلام» من الناحية الغربية وكان الصراع فيها مصطبغا الى حد ما بالصبغة الدينية وله طابع « الجهاد المقدس » فقد وفدت على هذه المناطق جماعات مختلفة من الناس يتزيون بزى الدراويش المجاهدين ، وفئات من الدراويش الرحالة ظاهرهم طلب الجهاد وحقيقتهم طلب العيش •

وسنتناول بعد قليل قسما من هؤلاء الوافدين من الدراويش التركمان اختلط بالبدو وأهل القرى ليروج فيهم — مسلمين ونصارى — دعاوى الحادية •

وحل على المدن والقصبات فريق آخر من الدراويش ينتمى الى الطرق السنيه ويختلف تماما عن القسم الأول ، ولكنه لم يستطع فى أى وقت أن يؤثر — على أى نحو — فى العشائر التركمانية •

وعلى الرغم من الدعاية التى كانت تزاولها المدارس الدينية والطرف المستقرة فى المدن لم تقع بين المسلمين والنصارى ممن يعيشون تحت حكم واحد فى مناطق الحدود أية خصومة ترجع الى سبب دينى •

وانا نستطيع دون أى تردد أن نسحب هذه الحقيقة التاريخية

وهى انعدام العـــداء الدينى بين المسلمين والنصارى على كل ناريخ الاناضول طوال العصور الوسطى الماخرة ، وبخاصة على الفرةالتى يشغلها السلاجقة من هذا التاريخ وقد ألممنا بهذه النقطه الماما خصيما من قبل عند حديثنا عن الحياة فى المدن .

ولا يمكن أن تنقض هذه الحقيمه بما كان يحدث أحيانا فى الأناضول من وقائع طارئه ونادرة كالذى كان من دميرداس حين غلا فى تطبيق السياسة الاسلامية ، وحاول أن يلعب دور المهدى المنتظر وأن يخص اليهود والنصارى بأزياء يعرفون بها .

وان بين أيدينا ــ فى مقابل هذه الوقائع القليله ــ دلائل كثيرة على أنالسلاجقة والدانشمنديين كانوا يسوون بين رعاياهم،لايفرقون بين مسلم ونصرانى [٢٦].ومع أن المسلمين والنصارى كانوا يعيشون فى مناطق متعادية على الحدود تتجلى على جانبيها الخصومة بينالترك والبيزنطيين فلم تقع بينهم أى عـــداوة دينية حتى ليقرر المؤرخون البيزنطيون أن الروم الذين كانوا يعيشون فى جزر بحيرة بكشهرى ــ وهى يومذاك من مناطق الحدود ــ كانوا يصطنعون ــ لقوة الأواصر

---

(٢٦) Chronique de Michel le Syrien, traduite par J.B. Chabot, t. III, P. 222 — 235; Deux Historiens armeniens, trad par, M.Brosset, Saint pétersbourg 1870, livraison I, P. 114; J. Laurent : Sur les Emirs Danichmendites, dans MélanfesN. Jorga, Paris 1933 P. 505.

ولنفس المؤلف

Byzance et les Tucs seldjoucides, paris 1919, P. 74,

ولنفس المؤلف أيضا Des Grecs aux Croises, Byzantion, I P.

Geographie d'abulfeda, Vol. I P. XV.

بينهم وبين الترك ـ تقاليد الترك وعاداتهم ويعقدون معهم علاقات الصداقة ضاربين صفحا عن أوامر الامبراطور [٢٧] .

وتكشف هـــذه الواقعة التى أصــاب F. Chalandon حين أبرزها للعيان ، عن حقيقة العلاقات بين المسلمين والنصـــارى على مناطق الحدود .

وأما الأســـتاذ Henri Gregoire الذى نشر فى السنين الأخيرة أعمالا عظيمة الأهمية عن ملحمة Digenis akritas وعن قصة بطال غازى فقد كان مصيبا بدوره حين قرر أن هذين الأثرين لا يعبران عن مجتمعين متنابذين بينهما هوة دينيــة ولكن يصوران فئات عاشت فى ظروف اجتماعية متشابهة كل التشابه ، واستحكمت بينهما العلاقات بل المودات [٢٨] .

ويمكن أن نسحب هذا الذى قرر هنرى جريجوار على قصة تركية أخرى لا تعدو أن تكون امتدادا لقصة بطال غازى وهى قصة « دانشمندنامه » وكذلك على قصة دده قورقود التى تصور فصــولا من الصراع بين الأتراك الآق قويونلية وامبراطورية طربزون فعلى الرغم من ساحات الوغى التى هى خاصة من خصائص الملحمة كنوع أدبى وعلى الرغم من التعصب الدينى الذى يتجلى فيها فانا لا نحس أن بين الطرفين عداوة عميقة ؟ نعم .. اننا نعلم أن مناطق الحــدود

(٢٧) F. Chalandon, les Comnénes t. II, P. 181.

(٢٨) H. Gregoire : Autour de Digenis Akritas, Byzantion, t. VII, P. 293.

شهدت معارك بين الترك والبيزنطيين فىالقرنين الثالث عشر والرابع عشر،ونعلم أن هذه المعاركـكانت دامية فادحة الخسائر على الطرفين، وقد ذكرت بعض المصادر أن سكان المدن والقرى كانوا يفرون من الهلع خلف الجيوش المغلوبة •

ولكنا نعلم على الرغم من هذه الحوادث التى كانت طبيعيةجدا بالنسبة لتلك الحقبة أن الموقف المتبادل بين المسلمين والنصارى ـ حتى فى مناطق الحدود ـ كان على النحو الذى صورناه •

(ج) الدخول فى الاسلام

وقد حان الوقت الآن لنتناول باختصار مسألة الدخول فى الاسلام •

كان الاسلام ينتشر لا ريب فى نصارى الأناضول فى العصر السلجوقى بدليل أن بعض رجالات الدولة السلجوقيه كانوا حديثى عهد بالاسلام ، وكان من بينهم من ينتمى الى الارستقراطية البيزنطيه العليا ، كأسرة كومنين ، ولم يكن من النادر أن نرى ـ عدا هؤلاءـ بعض العلماء أو الصناع أو حتى كبار الصوفية قد تحولوا همأنفسهم أو تحول آباؤهم عن المسيحية الى الاسلام ولا شك فى أن المخالطة الطويلة ، وما كان للمسلمين من مركز خاص فى ادارة الدولة ، ورغبة غير المسلمين فى التخلص من بعض التكاليف ، لا شك فىأن هذه العوامل السيكلوجية والاقتصادية قد ساعدت كلها على حركة

الدخول فى الاسلام ، واذا كنا نعلم أن المسلمين قد عانوا شيئا من الضيق تحت حكم الايلخانيين ، وأن بايدو أنزل النصارى منزلا خاصا من نفسه ، واتخذ ـ بتحريضهم ـ بعض الاجراءات ضد المسلمين اذا كنا نعلم ذلك فيجب ألا ننسى أن هذه التصرفات التى ترمى الى غايات سياسية أكثر منها دينية ، كانت جميعها مؤقته •

واذا كنا نعلم أيضا أن بعض رجالات المغول فى الأناضول كانوا لا يزالون على غير دين الاسلام حتى أثناء النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، فلا شك مطلقا فى أن العنصر الاسلامى قد استرد مركزه الممتاز فى الأناضول ابتداء من عهد غازان •

ومع هذا فيمكننا رغم كل الظروف التى بيناها أن نقول ان انتشار الاسلام فى نصارى شرق الأناضول ووسطه لم يبلغ فى العهدين السلجوقى والايلخانى المبلغ المزعوم •

ويؤيد هذا ما يروى الآقسرايى من أن الجزية التى كانت تجبى من نصارى الأناضول كانت تكون فى القرن الثالث عشر قسما هاما من الايرادات العامة •

ولكن لنتساءل الآن :

ماذا كانت نسبة الدخول فى الاسلام فىالقرن الرابع عشر فى الامارات التركية بغرب الأناضول ؟

أكانت هذه النسبة مرتفعة بين الروم ، وبخاصة فى الاراضى

العثمانيه كما يقرر جماعة من أصحاب الدراسات البيزنطية ومن بينهم جيبونز وكثير من المؤرخين ؟

ان جيبونز يضرب لتأييد نظريته هذه مثلا مدينتي بورسه ونيقيه ، ونحن لا ننكر أن البيان المشهور الذى أذاعته البطريركية البيزنطية فى أهالى نيقيه سنه ١٣٣٩ ــ ١٣٤٠ يدل على أن حركة الدخول في الاسلام كانت واسعة الى حد ما ، ولكن يجب فى نفس الوقت ألا نسند الى هذا البيان مدلولا أوسع من مدلوله الحقيقى .

واذا كان ابن بطوطة قد لاحظ حين زار نيقية بعد أن فتحها الترك بقليل أنها قليلة السكان بعد أن كانت عامرة جدا تحت حكم البيزنطيين فلا يمكن أن نعلل قلة السكان هذه بأن أهل نيقية ــ كما يظن جيبونز ــ قد دخلوا بنسبة كبيرة فى الاسلام ثم انتشروا فى الأراضى العثمانية .

بل الرأى أن يكون سكان هذه المدينة قد قلوا قبل الفتح التركى بمدة طويلة نتيجة لانتقال عاصمة الامبراطوريه الى استانبول ، ولتحول المنطقة بعد ذلك الى منطقة حدود محفوفه بالأخطار .

ولنضف الى ذلك أنهم لو أسلموا جميعا فقد كان أورخان تاركهم من غير شك وشأنهم ، وأن العثمانيين لم يتبعوا فى أى وقت سياسة الاكراه على الدخول فى الاسلام ، وأن من غير الممكن فى المدن أن يغير الناس دينهم جماعيا .

واذا كانت بعض المصادر العثمانية ككتاب عاشق باشـــا زاده تنص على أن من القرى المسيحية قرى أسلمت بأكملها أثناء الفتوحات العثمانية فان أمال هذه النصـــوص المستندة الى الروايات الشفويه مشكوك فى صحتها التاريخية •

ولقد روى هذا المصدر نفسه أن النصـــارى فى الاماكن التى فتحها الترك قد بقيت على نصرانيتها ، ولم يشر مطلقا الى أى دخول فى الاسلام •

واذا صح ما ورد فى المصادر العثمانية من أن كوينوك Goynuk التى كانت كلها على النصرانيـــة حين مر بها ابن بطوطة قد أسلمت قبيل نهايه ذلك القرن ، وأن بايزيد الصاعقة قد عمر بأهلها وبأهل طوربه الى المحلة الاسلامية التى أسسها فى اسانبول اذا صح ذلك فالأولى أن يقال فى عمل بايزيد انه توطين لعناصر تركية جـــديده لا لعناصر دخلت جماعيا فى الاسلام ، وانه لمن غير المعقول منطقيا أن تعمر المحلة الاسلامية فى استانبول بأروام حديثى العهد بالاسلام •

وتنص بعض الوثائق الرسمية على أن قرى تقع فى المنـــاطق التى ذكر جيبونز أنها أسلمت فى بداية الفتح ، كانت لا تزال آهله ـ فى عهد محمد الأول ومحمد الثانى ـ بالاغريق وحدهم •

وانه لأدنى الى الصواب والحيطة ـ ازاء هـــذه الدلائل ـ ألا نتصور دخولا سريعا وجماعيا فى الاسلام لا فى الأراضى العثمانيـــة ولا فى أراضى الامارات التركية الأخرى بغرب الأناضول •

ولقد كانت امارات الحدود هذه ـ كما يفهم بسهوله من كل ما قدمنا من شروح ـ مهيأة بحكم موقعها ـ للتزايدالمطرد فيالسكان اذ كانت تتدفق عليها باستمرار عناصر تركية واسلاميه ، ومن هنا فلسنا بحاجة اذا أردنا تفسير زيادة السكان فيها الى أن نقحم عامل الدخول فى الاسلام كما فعل جيبونز •

ولكن ليس معنى ملاحظاتنا هذه أننا ننكر نهائيا أن قسما من النصارى قد هدى الى الاسلام فى النصف الأول من القرن الرابع عشر وذلك أن موقف الكنيسة الارثوذكسية التى فقدت سلطانها على الجماهير مند القرن الثانى عشر خلق حالة وجدانيـــة تبرر ـ مع المصالح الاقتصادية ـ الدخول فى الاسلام ، وأما طوائف الهراطقه (من وجهة نظر الكنيسة) فان دخولها فى الاسلام لا يحتـــاج الى بيان •

وبهذا الاعتبار يمكننا أن نقرر ببساطة أن الدخول فى الاسلام بالاناضول قد تم فى ذلك العهد بالتدريج وبنسبة محدودة وأن نسبته لم ترتفع فى عهد الامبراطورية العثمانية الا بعد أن رسخت قدمها فى البلقان أى فى القرن الخامس عشر على الأكثر •

ثم ما زال الدخول فى الاســلام يتزايد بعد ذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر •

وأما دعوى جيبونز أن العثمانيين كانوا محتاجين وهم يؤسسون

تشكيلاتهم السياسية الاولى الى ان ببحثوا عن العناصر الاداريه بين حديثى العهد بالاسلام من الروم فدعوى ـ مفهومه كما يفهم من كل هذه البيانات •

وان من الحقائق التاريخية المقررة الآن ان كل رجال الدوله فى القرن الرابع عشر كانوا من الترك وأن Evrenos الذى يقال انه رومى أسلم، كان ينحدر من الارستقراطية التركيه القديمه وان أصحاب المناصب من حديثى العهد بالاسلام لم يكونوا اكثر من بضعه أشخاص •

لقد أسست الدولة العثمانية فى القرن الرابع عشر بعناصر تركية خالصة فلما آل أمرها بعد النصف الثانى من القرن الخامس عشر الى أن تصبح امبراطورية كبيرة تسيطر على عناصر مختلفه ، دخلت فى الجهاز الادارى ـ كما حدث فى الامبراطوريتين البيزنطيه والعباسيه ـ عناصر أجنبية متعثمنه Ottomanisés واذا كان انتماء قسم كبير من أباطرة بيزنطه الى عناصر أجنبية لم يتخذ دليلا على عجز العنصر الرومى عن ادارة دولاب الادارة فلا يمكن أن يكون موقف الامبراطورية العثمانية وهو مماثل لموقف الامبراطوريه البيزنطيه دليلا على عجز الترك •

(د) التشكيلات العسكرية

والآن وقد بينا ظروف الحياة الاجتماعيه فى امارات الحدود وشرحنا موقف العناصر الاسلامية والمسيحية بعضها من بعض ،

فلنحاول أن نفرد كلا من التشكيلات الاجتماعيه ذات النشاط الفعال في تلك الامارات بكلمة :

أشار عاشق باشا ، وهو من أوائل كتاب الحوليات العمانيين ، في فقرة من فقرات كتابه الى أربع طوائف هامة ومستقلة ، ولابد أن يكون علمنا بهذه الطوائف دقيقا حتى نستطيع دراسة الحيـــاة السياسية والاجتماعية لا في مناطق الحدود فقط بل في الأناضــول بعامة .

يرجع نشوء هذه الطوائف الى القرون الأولى من العصـــور الوسطى الاسلامية ، وقد نشأت في أقاليم جغرافية مختلفة في العالم الاسلامي فاختلفت أسماؤها باختلاف الزمان والمكان ، ولكن المصادر التاريخية ــ حتى أكثرها أهمية ــ لا تعطي هذه الطوائف المتشابهة التي كثيرا ما تداخل بعضها في بعض الا معلومات غامضة ، قابله لكثير من التأويلات ، أو معلومات خاطئة .

ولما كانت هـــذه المصادر ــ التي ما زال جزء منها مخطوطا ــ غير معروفة معرفة كاملة حتى للمتخصصين ، فاننا لم نصل بعد في أمر هذه الطوائف الى نتائج صحيحة وثابتــة . ولما كنت قد شغلت منذ زمان بعيد بدراسة هذا النوع من الطوائف في العالم الاسلامي فها أنا أعرض عليكم نتيجة أبحاثي في أخصر شكل وأبسطه :

١ ـ الغزاة والأبطال :

لا يرجع ظهور الطبقه التى يذكرها عاسق باشا باسم « غازيان روم » أى غزاة الروم ، وتذكرها المصادر الاخرى باسم « آلبلر » أو « آلب ارنلر » الى أيام انهيار الدوله السلجوقية فقط وانما يرجع ظهور هدا التشكيل الاجتماعى فى الأناضــول الى أيام الفتوحات السلجوقية الأولى ، واذا كان اللقب التركى « آلب » الذى استعمله الاتراك قبل اسلامهم بمعنى البطل أو بمعنى المحارب وأضفوه عـلى القادة وعلى الأمراء (٢٩) ، اذا كان هذا اللقب قد ظل مستعملا بعـد اسلام الترك وأصبح لقبا من الألقاب الرسميه فى الدول التركيــه ، فالملاحظ ـ مع هدا ـ أن الترك قد بدأوا بعد اســلامهم يستعملون لقبا دينى الصبغة هو لقب « غازى » ، طورا بمفرده وطورا مقرونا باللقب الأول « آلب » ويلاحظ أيضا أن لقب غازى الذى كان يطلق من باب التشريف على المجاهدين فى سبيل الدين قد صار لقبا رسميا فى أسرة الدانشمندبين بالأناضول ، ثم صـــار بعد ذلك لقبا رسميا لكثير من حكام الحدود ، ولكن يندر أن يضفى هـــذا اللقب على رجالات السلاجقة لأن السلاجقة كانوا يتلقبون بصنوف الألقـــاب الخاصة بأمراء الدول الاسلاميه ، وربما كان اللقب « آلب » أكثر استعمالا عند أمراء الحدود منه عند السلاجقة •

وللقب « غازى » الذى يطلق أحيانا فى المصادر التاريخية على

---

(٢٩) W. Thomsen : Inscription de l'Orkhon, Helsingfors, 1896.

مجموعة أفراد الجيس الاسلامى معنى حاص ومحدود فهو علم على جماعه معينة فى الجيش أو فى المدن الكبرى [٢٠] •

واذا كانت طائفه الغزاة هذه قد وجدت فى جيوس سلاجقه الروم والدانسمنديين فانا واجدوها أيضا فى جيوس السلاجقه الكبار من قبلهم بل واجدوها قبل هؤلاء جميعا فى خراسان ، وفيما وراء النهر على عهد السامانيين [٢١] •

ولقد كان من الطبيعى أن تظهر هذه الطائفة الطفيلية فى أناس ليس لهم فى الغالب أرض ولا مهنه يقتاتون بمزاولتها ، ومضطرون ـ بحكم الضرورة الاقتصادية ـ الى أن يبحثوا عن رزقهم فى ظل الحروب والفتن الداخلية التى لم تكن تخمد فى العصور الوسطى •• ثم ان ضعف الادارة الحكومية واضطرابها وحاجة الحكام والقادة المستمرة الى عساكر مرتزقة يواجهون بهم الأعداء فى الداخل والخارج، كل أولئك كان عاملا على تشكل مثل هذه الطوائف لا فى مناطق الحدود فقط ولكن فى قلب المراكز السياسية والاقتصادية الكبيرة •

وفى القرن العاشر ظهر فيما وراء النهر تشكيل اجتماعى يحمل

---

(٣٠) Nerchakhy, Description de Boukhara, publié par CharlesSchefer, Paris 1892 P. 192.

(٣١) نفس المرجع ص ٨١ ـ ٨٢ ، الكرديزى : كتاب زين الأخبار ، نشر محمد ناظم برلين ١٩٢٨ ص ٤٨ ، وكذلك : The Tarikh-i Baihaki (Bibliotheca Indica), Kallcutta, 1862, P. 23.

اسم « الغزاة » شبيه جدا بجماعةالعيارين [32] التى ظهرت فى بغداد فى القرن الثامن فلما اشتد ساعدها باستغلالها الفتن الداخلية جبت خراج بغداد لصالحها فى النصف الأول من القرن التاسع .

وفى هذا القرن التاسع نفسه،وعلىعهد الطاهريينوالصفاريين ، كانت توجد تشكيلات تحمل نفس الاسم فى ايران .

وأما غزاة ما وراء النهر فقـــد لقبوا بذلك تشريفا لهم عـلى محاربتهم كفار الحدود فى أيام السامانيين ولم يكن هؤلاء الكفار الا الأتراك الوثنيين .

وقد اعترفت الدولة رسميا بهؤلاء الغزاة لكثرة عددهم .

وكان رئيسهم يسمى بأسماء مختلفة فى كتب من عاصرهم من المؤرخين فهو فى كتاب البيهقى «سبهسالار غازيان» أى قائد الغزاة ، وفى كتاب العتبى (رئيس الفتيان) وفى كتاب الكرديزى (رئيس العيارين) . ولم يخطىء أحد من هؤلاء المؤرخين الثلاثة لان هذه الأسماء المختلفة : الغزاة والعيارين والفتيان كانت منذ القدم أسماء مترادفة.ونستطيع اذا لم نقنع بالرجوع الى مصادر التاريخ العباسى، واستشرنا الى جانبها المصادر الأدبية والصوفيه ـ أن نكشفعن هذه

---

(٣٢) كوبريلى زاده محمد توركيـــا تاريخى اســـتانبول ١٩٢٣ ص ٨٢ .

المسأله التى كان المأسوف عليـــه بارتولد أول من عنى بها عنـــاية جادة (٣٣) •

أورد الطبرى مقطوعة شعريه ترجع الى أوائل القرن التاسع بوصف فيها العيار بكلمة فتى (٣٤) •

ويذكر ابن الأثير وهو يتحـــدث عن القلاقل التى وقعت فى بغداد سنة ٣٦١ (٩٧١ ـ ٩٧٢) عندما نودى فيها بالجهاد فتدفقت عليها زمر مختلفة من الناس ، يذكر العيارين باسم الفتيان والنبويه، وقد ذكر الرحالة العربى ابن جبير الطائفة الثانية ونوه بوجودها فى سوريا فى القرن الثانى عشر (٣٥) •

وتدلنا عبارة ابن الأثير على أن هذه الطائفه كانت موجودة فى بغداد قبل ذلك بقرنين ، ويذكر ابن الأثير أن الفتيان كانوا يكونون تشكيلا منظما فى بغداد سنة ٤٧٢م (١٠٨٠ ـ ١٠٨١م) • وعلى أى حال فان ظروف الحياة المتشابهة قد أظهرت هذه الطائفه الاجتماعيه منذ أقدم العصور فى المراكز الصناعية والتجارية الكبرى ، ولقـــد اختلفت أسماء هذه الجماعات كما اختلفت أزياؤها ومبادئها الخلقية اختلافات متفاوتة بحسب الزمان والمكان وكان أصحاب هذه الطوائف يتحولون بحسب الظروف الى لصوص أو قطاع طريق أو قبضايات

---

(٣٣) Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion, Laudon 1928, P. 215

(٣٤) الطبرى نشرده غوية ٢٫٨٨٦ •

(٣٥) The Travels of Ibn Jubayr, de goeje leyden 1907 P. 280.

أو ينحولون الى عساكر متطوعه أو مرتزفه يشاركون فى الحروب الداخليه أو على الحـــدود ، وكانوا ينصلون بطوائف الصناع التى ينتمى اليها بعضهم فيخلون بالنظام الاجتماعى فى المراكز الكبرى ، فى حالات البطاله أو اذا أتيحت لهم الفرصة •

ولقد كانت هذه الطائفه موجودة قبل الغزو المغولى وبعده فيما وراء النهر وخراسان وفارس والعـراق وسوريا وشمال افريقيـــه والأناضـــول تحت أســـماء مختلفة كالحرافشه والعيارين والشطار والمطوعه والجعيدية والزناطرة والفتيان والرنود وأسماء أخرى من هذا القبيل •

ولماكانت الجماعة المعروفه فى تاريخ التصوف بملاميه خراسان موصـــولة السبب على نحو من الأنحاء بتشـــكيل العيارين فى نفس الاقليم فقد كانت لهما اصـــطلاحات مشتركه مع فروق طفيفة فى المدلول مثل عبارتى المروءة والفتوة وغير ذلك [٣٦] •

وما ان انتظم أرباب الحرف فى المراكز الصناعيه الاســـلاميه فى طوائف حتى دخلت هذه العبـــارات فى مصطلح طوائفهم التى كانت على صلة اما بالجماعات الصوفيه واما بجماعات العيـــارين أو ما شابهها ، حتى لقد كان للمبادىء الخلقيه لهـذه الجماعات أثرها البين فى تطور المبادىء الخلقية لطوائف الصناع •

---

(٣٦) R. Hartmann, As-Sulami's Risalat al-Maiamatıya, Der Is- lam, VIII, 1918.

ولقد أصاب ماسينيون حين ترجم كلمة « فتوة » تارة بعبارة « الفروسية الثائرة » : Chevalerie insurrectionnelle وتارة بعبارة « البطولة الخارجة على القانون » Heroisme horis lois ولقد كان من الطبيعي أن يصطبغ معنى الفتوة في اصلاح الطرق الصوفية بصبغة أخرى روحيه ولكن المعنى الذي ذكره ماسينيون هو في الحقيقة أصل معاني الكلمة من حيث هي علم على المبدأ الخلقي للطبقة الاجماعية التي نتحدث عنها .

ومع هذا فيجب أن نرجع دخول مبدأ الفتوة في جماعات العيارين ثلاثة قرون قبل التاريخ الذي حدده ماسينيون وهو سنة ٥٣٥ هـ [٣٧] .

ولقد قلنا من قبل : ان الخليفة الناصر لدين الله حاول أن يجمع منظمات الفروسية في كل الأراضي الخاضعة للخلافة تحت سلطانه عسى أن تكون له سندا ، وأن يدعم بها نفوذه ، وفي نفس الوقت أدخل هذا الخليفة كثيرا من أمراء المسلمين في هذه الجماعة، وربما كان هذا المشروع من مشروعات الخليفة الناصر (الذي كان ينتمي من زمن بعيد الى أهل الفتوة ويلبس سراويلها) صادرا عن اعتقاده بأن الشرق الاسلامي — وقد اتصل بالفروسيه الغربية عن كثب — سيقوى على منازلتها بفضل هذا المشروع .

(٣٧) L. Massignon, Recueil de Textes Inèdits concernant ...toire de la Mystique t I, Paris 1929, P. 69.

ولا شك فى انه بتصرفه هذا قد برر مشروعية جماعات الفتوة، وربأ بها عن أن تظل مجمعا للصعاليك ، ولا شك فى أنه حين ألحق بها أكابر أرباب الاصالة والأرستقراطية قد خلق فروسية اسلامية عظيمة الاخلاق رفيعة المستوى الاجتماعى .

ومن الواضح أن الخليفة الناصر كان يحاول فيما يحاول من اجراءاته هذه أن يضع الطرق الصوفية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت فى أرجاء العالم الاسلامى والتى كانت مع خضوعها نظريا لرقابة الدولة لا تعترف لها عمليا بأى سلطة ، أقول انه كان يحاول أن يجعلها هى أيضا تحت سلطانه (٣٨) ، وبعد أن فتح السلطان السلجوقى عز الدين كيكاوس الأول سينوب أوفد الشيخ مجدالدين اسحق الى الخليفة الناصر يحمل هداياه ويبلغه رغبته فى الانضمام الى هذه التشكيلات وأجيبت رغبة عز الدين وحمل اليه الشيخ مجد الدين سراويل الفتوة (٣٩) .

وفى القرن الثالث عشر والرابع عشر كان لقب الغازى يرد كثيرا مقرونا بأسماء بكوات الحدود ، ولكنا لا نصادف كلاما عن تشكيلات بهذا الاسم لا فى مدن وسط الاناضول ولا فى مناطق

---

(٣٨) P. Kahle, Die Futuwwa — Bundnisse des Kalıfen en —Nasır (622-1225) Festschrıft Georg Jacob, Leıpzıg 1932 S.112 — 117; P. Kahle, Ein jahre, 604 (1207), archiv furOrientforschung (Oppenheim Festsehrıft), Berlın 1933, S.52-58.

(٣٩) ابن بيبى : سلجوقنامه مكتبة أياصوفيا رقم ٢٩٨٥ .

الحدود ، وكان لقب « ألب » يرد فى ذلك الوقت أكثر مما يرد لقب غازى الذى نصادفه فى المصادر العثمانيه والذى استعمله عاشق باشا زاده فى عباره (غازيان روم) واذا كانت المصادر العثمانية كثيرا ما تقرن أسماء القادة الذين كانوا تحت امره عثمان بلقب آلب فان الشاعر التركى المعروف عاشق باشا الذى عاش فى النصف الاول من القرن الرابع عشر يذكر الصفات التسع التى يجب ان تتوفر فى الشخص ليصبح « آلب » أو — لكى يصطبغ هذا اللقب التركى التشريفى بصبغه روحه — « آلب ارن » • والصفات التسع هى :

قوة القلب أى الشجاعة ، قوة الساعد ، الحمية،الزى الخاص ، الفرس الجواد ، القوس ، السيف ، الرمح (السونكى) ، الرفيق الموافق [٤٠] •

ويفهم من هذا أن تشكيلات الالبلر الذين كانوا يحيون فى ذلك الوقت على حدود الاناضول الغربية مغايرة لتشكيلات الغزاة التى تحدثنا عنها من قبل والتى كان يغلب عليها أن تكون تشكيلات مدنية Urbain والتى كانت تعتمد على التقاليد الاسلامية •

وأما أن تكون تشكيلات الألبلر مرتبطة بتقاليد الترك القديمة بنوع خاص فأمر طبيعى جدا لأنها كانت منتشرة فى أنصاف البدو من العشائر التركمانية المحتفظة بتقاليدها القومية والتى كانت تكون القوة الرئيسيه لبكوات الحدود •

---

(٤٠) تورك ادبياتنده ابلك متصوفلر ص ٢٧٣ •

ولم يكن تلقب أمراء الحدود بلقب غازى الا نتيجة لحيـاتهم فى المدن وخضوعهم لتأثير أصحاب الثقافه من الدارسين فى «المدارس» ومع ذلك فلا شك فى أن تشكيلات الالبلر هذه هى هى التشكيلات التى لم يفهم عاشق باشا زاده حقيقتها كل الفهم فذكرها تحت عبارة (غازيان روم) •

نعم •• ان المحـــاربين التركمان الذين كانوا يكونون جيش الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفويه فى القرن السادس عشر ، والذين كانوا يعتبرونه ــ الى رياسته السياسيه ــ رئيسا دينيا أو بعباره أخرى ــ مرشدا ، هؤلاء المحاربون يذكرون بعبارة الغزاة أو الصوفية ولا يذكرون بعباره البلر ، ولكن ذلك كان نتيجة تطور فى المفاهيم الروحيه تم على مدى قرنين طويلين من الزمان •

٢ ــ الآخيان :

والطائفه الثانيه التى تحدث عاشق باشـا زاده عن أهميتها فى الأناضـــول هى طائفة « آخيان روم » ، ولما كانت كثرة عـــددهم بالأناضول قد عرفت منذ زمان بعيد بفضل ما رواه ابن بطوطه ، فان مسأله الدور الذى لعبوه فى تأسيس الدولة العثمانية قد لفت النظر أيضا منذ زمان بعيد •

ومع أنه قد يخيل للرائى أن كنه هذا التشكيل الاجتماعى قد اتضح بفضل الأبحاث التى يقوم بها المستشرقون منـــذ خمسة عشر

عاما ، وبفضل الأبحاث التى نشرت عن عدد من كتب الفتوة القديمه والحديثة فان الغموض ما زال يحيط بهـذا التشكيل من الناحيـه التاريخية (٤١) .

ولقد تناول ابن بطوطة هذه الطائفة التى لقيها فى مدن الاناضول الرئيسية مثـل (أنطاليا وبوردور وكلحصار ، ولاديق ، وميلاس ويارجين وقونيه ونيكده وآقسراى وقيصرية وسيواس وكوموش وأرزنجان وأرضروم وبركى وتيره ومغنيسيا ، وباليكسر وبروسـه وكره ده وكيوه ونجه ومودورنى وبولى وقسطمونى وسـينوب) تحت اسم : « الأخيه الفتيان » وتحدث عن زواياهم وقال انها توجد فى كل قصبة وقرية من قرى التركمان ، والواقع أن الدراسـات الطوبونيمية والنقوش والابجرافيـا ، وكذلك الوقفيات والفيـودات الرسمية ثم المصادر التاريخية تؤكد جميعها انتشار هذه التشكيلات فى كل أرجاء الأناضـول وحتى فى الاماكن الوثيـقة الصله به كأذربيجان والمدن الساحلية فى القرم .

وحتى اذا لم تكن هذه الزوايا قد انتشرت وتطورت فى القرن الثالث عشر انتشارها وتطورها فى القرن الرابع عشر فان وضعها فى القرن الثالث عشر كان قريبا من وضعها فى القرن الرابع عشر .

---

(٤١) للوقوف على مصادر لهذا الموضوع انظر :
F. Taeschner .Futuwwa — Studien, Die Futuwwabun — de in der Turkei und ihre Literatur, Islamice Vol. V, fasc. 3, 1932; Die Islamischen Futuwwabunde, Z.D.M.G., band 12 Heft 1/2, 1933.

ونتحدث بعض الكتب الخاصه بتاريخ العصر السلجوقي عندما تناول المدن الكبرى عن تشكل اجتماعي قوى هو تشكل الـ « رنود واخيان » اى الرنود والاخوان او أهل الفتوة وكلمه « رند » شده وجمعها رنود مرادفه تماما لكلمه عيار ، وموجودة في مصادرترجع الى عصور اقدم وتناول مناطق أخرى (غير الأناضول) • وليست هذه الطائفه ذات النفوذ في المدن الكبرى ، والتي هي – بطبيعتها – منظمة من منظمات المدينه ، ليست في حقيقة الامر شيئا غير العيارين والشطار والغزاة وغيرهم من الطوائف التي تحدثنا عنها من قبل ، ولا شك في أن عاشق باشا وهو رجل سادج وعلى غير شيء من العلم، قد التبس عليه أمر هذه الكلمات فتوهم أن الآخيان جماعه وأن الغزاة جماعة أخرى ، ولو أنه جعل جماعة الالبلر غير جماعة الآخيان لكان من غير شك أدنى الى الصواب ، ومع هذا فان جماعة الأخيان لم تكن ممثلة في المدن فقط ولكن كانت ممثله في القرى ومناطق الحدود أيضا لدرجة أنها تداخلت هناك في جماعه الألبلر ووجد أشخاص ينتسبون اليهما معا ، ويوصف الواحد منهم بأنه الب وأخي في نفس الوقت •

ولقد حدث مثل ذلك في المدن الكبرى حين تداخلت طائفه الفتوة في طوائف أرباب الحرف فقوى شأنها في المدن وبخاصة الكبرى الى درجة أن أعضاءها كانوا يحضرون الحفلات ومهرجانات اعتلاء العرش ومعهم موسيقاهم الخاصة وبيارقهم وعليهم أزياؤهم وكامل سلاحهم ، ونحن نعلم أنهم كونوا في المدن الكبرى جماعات

مختلفه ، وأن كل جماعه كانت لها راويه تعقد فيها اجتماعاتها، وربما أمكننا أن نستنبط من ذلك أن كل زاويه كانت خاصه بارباب حرفه معينه فان كان أرباب حرفة من الحرف من الكثرة بحيث لا تسعهم زاويه واحدة افتتحوا فى أنحاء المدينه عددا آخر من الزوايا ويفهم هذا مما رواه الأفلاكى من أن أخى أحمد شـــاه رئيس الفتيان فى قونيه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كان آمرا على جماعه من الرنود تبلغ بضعه آلاف ، ويلاحظ ـ فى نفس المصـــدر ـ أن الخصومة كانت تدب أحيانا بين رؤساء الرنود فى المدينة الواحدة ، وربما رجعت هذه الخصومة الى أسباب شخصية أو الى تضـــارب المصالح الاقتصادية الخاصة بشخصين أو بجماعتين .

وعلى كل حال فقد أثبت هذا التشكيل الاجتماعى ـ كما بينا من قبل ـ وجوده وتأثيره فى كثير من أحداث تاريخ الاناضول التى وقعت بالمدن فى القرن الثالث عشر ، ولا شك فى أن اشتراكهم فى الحركات الناهضة للسلاجقة والتى وفق بعضها فى الاستيلاء مؤقتا على قونية ، وموقفهم المعـــادى دائما للحكومة المركزيه كانضمامهم مثلا الى القرمانيين ، لا شك فى أن هذا كله من المســـائل الجديرة بالدرس ، ولكن يجب أن نشير الى أن القرمانيين وقد احتلوا قونية غير مرة فى عهد الولاة الايلخانيين ، قد شنقوا فى احدى هذه المرات، رئيس الآخيان .

يقول ابن بطوطة : ان أهل الفتوة شبان عزاب ويدير جماعتهم

رئيس مسحب يلقب بـ (أخى) ولكن النموس وشـــواهد القبور والوفيات والمصادر التاريخيه بعامة ندل على أن رؤساء هذه الجماعه لم يكونوا دائما من شباب أرباب الحرف العـــراب كما يفول ابن بطوطة ، ومن المؤكد انهم كانوا متزوجين وأن السلاطين وكبار القادة كانوا ينزلونهم منازل النـــكريم ، وأنهم كانوا من أرباب الروات الطائلة والنفوذ العريض ، وأن من بينهم من تبوأ المناصب الاداريه العالية ، وكان من دأب رؤساء الفتوة فى فترات الانتقال عندما تهن الادارة المركزية ، وتطل الفوضى برأسها أن يعتمدوا على تشكيلاتهم فيقبضوا بأنفسهم على أزمة الأمور فى المدينه ، ويعملوا على ألا تقوض أركانها بالانتقال من نطام الى نظام ، وواضـــح الآن ما كان لطائفه ـ هدا شأنها ـ من قوة ونفوذ فى فترات القلاقل على الأقل . ولما كانت الأجهزة الحكومية لا تزال ضعيفه فى تلك العهود ، فان هؤلاء الرؤساء لم يكونوا يمثلون فى القصبات الصغيرة سلطة الدولة،ولكن كانوا يمتلون سلطة أخرى أهم هى الادارة الشعبية المحلية .

ومن المحتمل جدا أن تكون تشكيلات الفتوة قد ازدادت قوة فى الأناضول بعد أن دخـــل فيها عز الدين كيكاوس الأول ، وأن تكون بمواءمتها بين نفسها وبين الرأى العـــام فى تلك الفتـــرة ، وبموافقتها للتيـــارات الفكرية المسيطرة على البيئة الروحيـــة فى الأناضول ، من المحتمل أن تكون ـ بذلك ـ قد اصطبغت الى حد ما باللون الصوفى ، وأن تكون بتداخلها مع طوائف الصناع قد اكتسبت

شيئا من الفوة من ناحيه ، وانعسمت هده الطوائف من ناحية أخرى، ومن المحتمل ايضا ان تكون بانتشارها فى داخل القرى ـ قد اتصلت بتشكيلات « الآلبلر » أى بطبقة أصحاب الاراضى •

ومن الدلائل على أن منزله جماعه الفتوة قد ارتفعت اجتماعيا أنه قد التحق بها فى الفترة من النصف الثانى من القرن الثالث عشر الى اوائل الرابع عشر عدد من رجال الدوله بالاناضول ومن القضاه والتجار والمشايخ الذين ينتمون الى طرق صوفيه مختلفه •

ولابد أن يكون هـــذا الذى بلغته مبـادىء الفتوة من قوة ، ودخولها فى طوائف أرباب الحرف او ـ بعبارة أخرى ـ لابد أن تكون اعادة تنظيم طوائف الصناع داخل اطار الفتوة ، قد تمت بعد العشرين السنه الأولى من القرن الثالث عشر •

وبعد ، فهذه فى رأيى هى الفذلكة الختاميه التى استخلصت حتى الآن من دراسه كل المصـادر التاريخية ومن دراســـة الكتب المختلفة المعنونة بفتوتنامه ، والتى حررت فى الأناضول فى عصـــور مختلفة •

ولما كان الشبان الصناع ملتحقين بعامه بزوايا الآخيان ، عـلى رأس القـرن الرابع عشر ، فقد حار كثير من الدارســين فى أمر الآخيان. فحسبهم البعض منظمة لأرباب الحرف ، وحسبهم البعض طريقه للفتوة كسائر الطرق الصوفية على حين أن العالم الاسـلامى

لم توجد به فى أى وقت من الأوقات طريقة للفتوة ولم تكن جماعة الآخيان بالأناضول منظمه قوامها أرباب الحرف ٠

ولما كانت كلمة الفتوة من حيث هى مبدأ خلقى قد صارت اصطلاحا مشتركا بين الصوفية والعيارين وطوائف الصناع ، فقد حار فيها طائفة من الباحثين المتأخرين وطائفه من المؤلفين الشرقيين القدماء وذهبوا أيضا الى وجود طريقها اسمها : (الفتوتية) وهو استنتاج مغاير تماما للحقيقة التاريخية ٠

وأما أن أخية أنقرة فى القرن الرابع عشر كانوا من أصحاب الاراضى الكبيرة ، وأنهم أقاموا نوعا من الجمهورية فتحها عليهم العثمانيون فيما بعد ، فادعاء بينت مدى تهافته فى كتاب قديم لى ، وقد تقبل جمهور المتخصصين من العلماء النتيجة التى توصلت اليها فى هذا الموضوع [٤٢] ، ولقد قلت أيضا فى كتابى هذا القديم ان لاخية الأناضول ــ كما للماسون ــ تسلسلا رياسيا محكما ، وأن الأسرار كانت تفشى للسالكين بحسب ما يبلغون من الرتب،وقررت ــ مستندا الى كتب الفتوة ــ أن الأخية الأناضولية بهذا الاعتبارباطنية المنشأ[٤٣] ومعنى هذا أن ماسينيون حين قرر ــ بحق ــ ارتباط منشأ طوائف الصناع الاسلامية بحركة القرامطة انما كان يؤيد بنظريته هــذه

---

(٤٢) P. Wittek, Zur Geschichte angaras im Mittelater, Fest- schrift George Jacob P. 349.

(٤٣) تورك ادبياتنده ايلك متصوفلر ٠

الرأى الذى ذهبت اليه [٤٤] ، وأما أن تشكيلات الأخية كانت سنية الطابع فى مناطق الأناضول السنية الخاضعة لرقابة الدولة فان ذلك لا يقدح أبدا فيما ذهبنا اليه من أمر نشأتها الباطنية •

وهكذا يتبين أن للأخيــة الفتيان ـ من بين كل الطوائف التى تحدثنا عن منشئها وطابعها وتداخلها فى غيرها ، وتداخل غيرها فيها ، والتى حاولنا تبيان الخطوط العريضة لتكاملها وتطورها التاريخى ، لهؤلاء الأخية ـ على التحقيق ـ أدوار خطــيرة فى تأسيس الدولة العثمانية ، وفى انشاء الجيش الانكشارى ، ولقد كنا أيضا أول من ذهب الى هذا الرأى منذ سنين ، ثم دعمه من بعدنا كثير من العلماء بوثائق جديدة •

وليؤذن لى الآن باستطراد قصير الا يكن وثيق الصلة بالموضوع، فهو ـ لأهميته ـ جدير بوقفة : ذهب F. Taeschner فىالسنوات الاخيرة الى أن من المحتمل أن تكون جماعات الفتــوة قد أثرت فى المفكر البيزنطى Pléthon الذى يعتبر واحدا ممن هيأوا الطريق لحركة الرينسانس [٤٥] ، ومع أن هذا الرأى يعوزه الدليل القاطع حتى الآن فحرى بالدارسين أن يبحثوا فى ماهية ما تأثر به بليتون من مبادىء الفتوة ومن التيارات الدينية والفلسفية فىالعالم الاسلامى،

---

(٤٤) L. Massignon, al-Hallaj, martyr mystique de l'Islam, I. I Paris 1922, P. 399.

(٤٥) Georgios Gemistos Pléthon, Der Islam, Band XVIII, heft 3/4 1929, S. 236 — 343.

وانظر ايضا مادة صنف فى دائرة المعارف الاسلامية •

فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وخاصـــة أن هـذا المفكر البيزنطى كان يحاول وضع دين جديد ملفق من أسـاطير الاغريق وديانة زرادشت • ولقد عاش بليتون شطرا من حياته فى بيئة تركية خالصة ببلاط العثمانيين [٤٦] ، وتكاد أفكاره فى الاصلاح الاجتماعى التى عرضها قديما Fallmerayer والتى كان بليتون يحـــاول تطبيقها فى جزر البلوبونيز ، أن تكون نقلا عن التركيب الاجتماعى لمجتمع الترك فى زمانه •

٣ ـ باجيان روم :

وتناول « عاشق باشا » جماعة ثالثة هى جماعة باجيان روم أى « منظمة النساء » ولما كانت هذه المنظمة لم تذكر فى أى مصدر غير كتاب «عاشق باشا زاده» فقد حار فيها ـ معذورا ـ كثير من الباحثين وحسبوا أن كلمة « باجيان » مصحفة ، بل ذهبوا ـ بعد دراســة الفروق بين نسخ عاشق باشا المختلفه ـ الى أن هذه الكلمة اما آن تكون « حاجيان روم » أى حجاج الأناضول ، واما أن تكون علما على احدى مخلفات العصر المغولى وهى طبقة (باخشيان روم[٤٧]) ومع أن حجاج الأناضول فى القرن الرابع عشر كانوا جموعا حاشدة فان ظهور تشكل خاص بهم أمر عجيب لا مثيل له فى العالم الاسلامى ،

(٤٦) A. A. Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, Vol. II, P.328 — 329.

(٤٧) F. Taeschner, Futuwwa Studien, Islamica, Vol. V, fasc. 3.S. 294 — 295.

ويجب ألا يرد أصلا على الذهن : وأما أن تكون الطائفة النانيه وهى طائفه الباخشيين (كتاب القصور الايلخانيـــه الواقفون على الخطين اولايغورى والمغولى) ، قد كونت تشكيلا هاما فى الأناضـول فأمر لا نستطيع أيضا أن نقبله من الناحية التاريخية ولو كاحتمال بعيد ، وليس لنا الا أن نقبـــل الصيغة الواردة فى عاشق باشا وهى صيعه باجيان •

وحتى اذا غضضنا الطرف عن هذه الملاحظات فان الجمله التى وليت كلمة باجيان تدل دلالة قاطعه على أن المنظمة منظمة نسائية بل يفهم منها أن قطب البكتاشية الحاج بكتاش ولى كان على علاقة بها ، ولابد أن يكون لهذا التشكل علاقة بلقب باجى الذى يطلقه البكتاشيه على من ينسب الى الطريقة من النساء •

ترى هل تطلق عبارة باجيان على زمرة صوفية نسائية ؟ اننا نعلم أن النساء فى العصر المملوكى كانت لهن تكية فى مصر وأنهن فى قونية كن يتلقين العهد من المشايخ ويحضرن مجالسهم محجبات • ولكن ليس لدينا مع هذا معلومات عن تكوين منظمة نسائية خاصة بهن فى الأناضول ، ولقد روى Eertrandon de la Broquiere. أن دولة ذى القدر كان لها فى بداية القرن الخامس عشر قوة مسلحة من التركمان قوامها ثلاثون الف رجل ومائة ألف امرأة وفى روايه ثلاتون ألف امرأة فقط فهل يطلق عاشق باشا زاده عبارة « باجيان

(٤٨) Bertrandon de la Broquiére, le voyage d'Outre — mer P. 82, 118.

روم » على حاملات السلاح من نساء القبائل التركمانية التى تقطن مناطق الحدود ؟

هذا ، حتى الآن ، هو أول ما يرد على الذهن •

٤ ـ أبدالان روم :

والطائفه الرابعة التى تحدث عنها عاشق باشا هى طائفة أبدال الروم وهم الهراطقة من دراويش الأناضول وهذه الطائفة التى تذكر فى بعض المصادر باسم «خراسان ارنلرى» لعبت دورا دينيا اجتماعيا خطيرا فى القرن الرابع عشر ويفهم هذا مما يرد فى كل المصادر العثمانية فى ذلك الوقت عن أصحاب الجذبة من الدراويش الملقبين بالباباوات أو الأبدال والذين كانوا يشاركون بسيوفهم الخشبية فى المعارك التى خاضها أوائل السلاطين العثمانيين •

ترى هل كان أبدال الأناضول طريقة خاصة قوامها الدراويش الهائمون على وجوههم ؟ أم أن « أبدال الأناضول » عبارة تطلق على مجموعة الدراويش المنتمين الى الطرق المارقه المختلفة رغم ما بينها من وجوه الشبه ؟

أظننا بحاجة ـ لكيلا نحار أمام هذه الأسئلة ـ الى كلمة موجزة جامعة واضحة عن الظروف الدينية فى الأناضول فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وعن خصائص الطرق الصوفية التى نمت وتطورت فى ظل تلك الظروف ، فبهذا نستطيع أن نقف على تاريخ أتراك

الأناضـــول السياسى فى العصـور الوسطى المتأخرة وعلى العوامل الدينية التى كان لها دور فعال فى قيام الدولة العثمانية .

احتفظت دولة سـلاجقة الروم فى سـياستها الدينيه بتقاليـد السـلاجقة الكبـار فاستمسكت بالمـذهب السنى والتزمت جانب العباسيين ، وبقيت المدن الخاضعة لنفوذ دولتهم بيئات سنية خالصه ، بل حنفية ، وأعان على تقوية هذا النظام بوجه عام المدارس والطرق الصوفيـة التى بدأت تتكاثر فى القرن الثالث عشر ، ومع أن بيئة المدن الأناضوليه كانت من التحرر بحيث تقبل نظريات الافلاطونية الحديثة ووحدة الوجود وأقوال المتأثرين بها كالسهروردى وابن عربى وصدر الدين القنوى ، ومع أنها كانت من البراءة من التعصب الدينى بحيث لا يمكن أن تقاس بها المراكز الاسـلامية الأخرى فى الشرق الأوسـط ، فانها ، مع هـذا كله ، كانت تحتفظ دائما بالمظهر السنى واذا كان الأستاذ بابنكر الألمانى قد ادعى ان سلاجقة الأناضول قد قبلوا المذهب الشيعى مذهبا رسميا فانه لم يأت على ذلك بأى دليل .

وكانت أهم الطرق فى مدن الأناضـول ابان تأسيس الدولة العثمانيـة هى المولوية والرفاعيـة والخلوتية ، ولم تكن الطـريقة المولوية التى عرفت فى أول الأمر بالجلالية نسبة الى جلال الدين قد أسست فى حياة مولانا جلال الدين ولكن أفاد خلفاء جلال الدين الذى جمع حوله المريدين من أعلى طبقات الارستقراطية الى أدنى

الطبقات الشعبية ـ بما فى ذلك النصارى واليهود ـ أفادوا من شهرته فأسسوا الزوايا فى كل مكان ثم وضعت الأركان والمراسم بالتدريج، وكانت هذه الطريقة التى تعتمد على طبقات الارستقراطية العاليه، وعلى البورجوازيه العاليه والوسطى، كانت تقف ـ منذ البداية ـ موقفا مضادا لجماعات الهراطقة وتعمل على الابقاء على النظام الاجتماعى والسياسى القائم .

وأما ما ادعاه بابنكر من أن هذه الطريقة مثلها كمثل البكتاشية تماما فادعاء مضاد للواقع التاريخى جملة وتفصيلا، ولقد عاشت هاتان الطريقتان طوال التاريخ العثمانى كقوتين متعاديتين، وأما الطريقة الرفاعية أو الأحمديه التى بدأت تنوطن الأناضول فىالقرن الثالث عشر فانها طريقة شعبية تأثرت بعد الغزو المغولى بالشامانية التركية المغولية[٤٩] ولكن هذه الطريقة التى كان لها فى القرن الرابع عشر تكايا كثيرة بالأناضول وكان سالكوها فى الغالب من طبقة الفقراء من سكان المدن لم تستطع أن تكتسب أهمية كبيرة .

وأما الطريقة الخلوتية التى زرعها أخى يوسف الخلوتى فى نيكده بافتتاحه زاوية هناك فى أواخر القرن الثالث عشر فقد كانت طريقة بورجوازية تحافظ على مظهرها السنى كالمولويه والرفاعيه، ولم تؤثر هذه الطريقة تأثيرا دينيا مباشرا فى امارات الحدود .

---

(٤٩) — Kopruluzade : Influence du Chamamisme .. turco mon-Sol. Istanbul 1929, P. 12.

ولكن لم تكد تشكيلات الأخية تتوطن فى الأناضول حتى توثقت بينهما العرى واكتسبت بذلك طبقة الصناع فى المدن ثم قويت فيما ولى ذلك من عصور فى أران ، وأذربيجان وفى بلاد الأمبراطورية العثمانية ويجب اتماما لهذه اللوحه التى تضم الطرق المدنيه فى أناضول القرن الرابع عشر أن نقرر أن الطريقة الكازرونيه ، وهى من أقدم الطرق الصوفية الاسلامية وتنسب للمتصوف الايرانى أبى اسحق الكازرونى وتعرف أيضا بالاسحاقية والمرشديه ، كانت توجد فى بداية القرن الرابع عشر فى المدن الأناضولية ولقد قلنا فى بحث لنا عن هذه الطريقة التى اكتسبت أهمية كبيرة فى الامبراطورية العثمانيه انها توطنت الأناضول فى أواخر الفرن الرابع عشر[٥٠] ولكن النص فى أحد النقوش [٥١] على أن شيخا اسحاقيا من أفسراى قد أنشأ زاوية لهذه الطريقة فى حلب ٧٤٧م (١٣٤٨هـ) يمكننا من أن نستنبط أن هذه الطريقة كانت موجودة فى الاناضول فى بداية القرن الرابع عشر بل بعد الغزو المغولى مباشرة أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر • ويمكن أن نظن أن هذه الطريقة التبشيرية ـ التى كان أتباعها يعتنقون مبدأ مجاهدة الكفار والدعوة الدينية ـ قد زاولت نشاطها فى منطقة الامارات الأناضولية الغربية • ويدل على ذلك ما اكتسبوه من أهمية

(٥٠) Abu Ishaq Kazeruni und die Ishaqi — Derwische in Ana-tolien, Der Islam Band XIX, Heft 1/2, 1930 S. 18-26.

(٥١) W. Kaskel, Der Islam Band XIX, Heft 4, S. 284.

فى بلاد العثمانيين فى أواخر القرن الرابع عشر وما استمتعوا به من حماية السلاطين .

وكان من الطبيعى أن تكون هـذه الطـريقة المعتمـدة على البورجوازيه الصغيرة وعلى طبقة الصـناع سنية المظهـر الى حد ما مثلها فى ذلك كمثل الطرق الموجودة بالمدن .

والآن ، وبعد أن فرغنا من عرض الحياة الدينيه فى الأناضول ، ورأينا كيف ظهرت التيـارات الدينية المختلفة فى المـدن الكبرى ، ممثلة فى صنوف من الطرق الصوفيه ، فلننظر بدقة الى القرى والى عشائر التركمان الرحل لأن الحياة الدينية والتيارات الصوفية كانت فى هذه البيئه أكثر حيوية واخلاصا واضطرابا وأكثر قابلية لأن تنقلب الى أعمال ففى تلك البيئة البدائية كانت الأفكار الميتـافيزيقية والمفاهيم المجردة تبسط الى أقصى حد وتتبلور متخذة أشكالا عملية محددة ولا تلبث دقائق الفلسفة الخلقية أن تتحول الى قواعد ثابتة من قواعد السلوك .

ان هذه المسألة هامة جدا اذا أردنا النظر فى امارات الحدود كيف تأسست ، وفى الدولة العثمانية كيف ظهرت من بينها .

فى بداية القـــرن الرابع عشر انتشر الدراويش المبشرون بمبادئهم حتى بلغوا القرى الصغيرة والعشائر ، وكان انتشارهم من السعة بحيث أثار الشعراء من صوفية المدن الكبرى فهاجموهم وكان ممن شدد النكير عليهم الشاعر كلشهرى شيخ تكية قيرشهر وخليفة

أخي أورن الذى كسر أتباعه في النصف الأول من القرن الثالث عشر ثم صار نقيب طائفة الدباغين ، ولا شك فى أن هؤلاء التركمان كانوا صحاح الاسلام بعامة سواء منهم من استقر فى القرى ومن احتفظ بحياة البداوة وقد روى Bertrand de la Broquiére أنه كان سائرا أمام قافلة من قوافل الحجاج عائدة ، فلما كان فى الطريق من كوتاهية الى بورسه حسبه بعض التركمان واحدا من الحجاج فاقبلوا عليه يقبلون يده وملابسه[٥٢] .

الا أن اسلام هؤلاء التركمان لم يكن سنيا خالصـــا كاســلام أتراك المدن ولكن كان ملفقا من التقاليد الوثنية التركية القديمة ومن عقائد غلاة الشـــيعة مبسطة على نحـــو شعبى ، ومن بعض مخلفـات العقائد المحلية ، يغطيها جميعها طلاء صوفى .

ولـما كان هؤلاء التركمان أولو الشكيمة هم القـــوة الوحيدة التى يمكن أن تُنَازَل بها الادارة المركزية فقد نشطت فيهم الدعاية الدينية والسياسيَّة .

وكان مشايخ هؤلاء التركمان أو باباواتهم كما كانوا يلقبون، يتعرضون ــ بسبب قيافاتهم العجيبة وعاداتهم المنافية للشرع وحياتهم المنحلة التى تذكر بشامات الترك القـدماء ــ لحمـلات شـديدة من الصوفية السنيين ، ولكنهم كانوا مع هـذا هم المنظمين والمسيطرين على الحياة الروحية فى القرى والعشائر .

---

(٥٢) Bertrandon de la Broquiére, Le Voyage d'outremer P. 131.

وما كان علماء الدين ولا مشايخ الطرق البورجوازية وهم غرباء كل الغربة عن هذه البيئات ليستطيعوا مجاهدتهم في مواطنهم، وكيف وقد كانت ثورة البابائيين التي تحدثنا عنها من قبل من اعداد هؤلاء الدعاة النشطين ومن صنعهم •

ولقد كانت هذه الجماعة البابائية التي ظهرت أول ما ظهرت في الأناضول في القرن الثالث عشر ، والتي كانت طوع أمر مشايخها لا تتأخر ، اذا صدر الأمر ، عن خوض الحرب ومعها نساؤها وأطفالها ، ولا تؤمن بأن الموت المادي يدرك مشايخها ، كانت هذه الجماعة أقرب الى أن تكون طائفة Secte منها الى أن تكون طريقة صوفية وهي تشبه ما نجده بالأناضول في العصور المتأخرة من الطوائف العلوية[٥٣] •

ولكن أين نبحث طبقا لمنهج تاريخ الديانات عن أصل البابائيين ومشايخ التركمان ؟

الرأى أن نبحث عن منشئهم في الطريقة القلندرية وفي الطريقة اليسوية ، وذلك أن أتباع هذه الطريقة الأخيرة المؤسسة في القرن الثاني عشر والتي تعتبر أقدم طريقة تركية في آسيا الوسطى قد انتشروا بسرعة عظيمة في كل ديار الترك ، حتى اذا كانت الهجرات الكبيرة من خراسان وما وراء النهر الى الأناضول بعد غزو جنكيز خان وفدوا على الأناضول واستقروا فيه،ولن أبسط

---

(٥٣) تورك أدبياتنده ايلك متصوفلر ص ٣١ ــ ٢٠١ •

القول فى هذه الطريقة التى تناولتها من قبل بالتفصيل ، ولكنى وقد أثبت العلاقة بين بعض أركانها وأركان الشامانية التركية القديمه ، فانى أحاول أن أصحح هنا ما ذهبت اليه قديما من أنها سنية الصبغة فقد تأكد لى بأبحاثى الحديثة المعتمدة على وثائق لم تكن بين يدى من قبل أن هذه الطريقة كانت ـ من لدن تأسيسها ـ طريقة من طرق الهراطقة ٠

وأما الطريقة القلنــدرية التى لم تفــرد حتى الآن ولو بكتيب لطيف مع أنها فى الدرجة الأولى من الأهمية لدراسة التصوف بعامة لا لدراسته فى الأناضــول فقط ، فها أنا أوجز لكم ايجازا ســديدا نتيجة أبحاثى فيها ٠

تعرضت هـــذه الطريقة التى تســتمد أصولها من « مدرســة خراسان » أو ـ بتعبير أبسط ـ من الملامتية ، والتى انساحت بعــد جمال الدين الساوى (٤٦٣) = (١٠٧٠) فوصلت الى ســوريا ومصر والعراق والهند وآسيا الوسطى والأناضول، لهجوم الصوفية السنيين لغرابة طقوسهم واستهانتهم بأقوال الناس فيهم ، واباحية سالكيها ٠

ولقد كانت العزوبة والفقر والشحاذة والملامة من الأسس التى تعتمد عليها هذه الطريقة ، مع فروق طفيفة بحسب الزمان والمكان، ولا شك فى أن أتباع هذه الطريقة يذكروننا بزيهم وطراز حياتهم وحتى بمبادئهم الخلقية بطائفه السادهو الهندية، ولقد كان القلندرية ينتقلون فى جماعات كثيفة الى حد ما من مدينة الى مدينة محلقين

رؤوسهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم حاملين بيارقهم الخاصة وطبولهم • ومع أنهم كانت لهم تكايا فى بعض البلاد الا أنهم كانوا هائمين دائما على وجوههم •

واذا نظرنا فى مبادئهم التى ذكرناها أدركنا بسهولة الى أى نوع من الانحلال ، بل الى أى مهاوى العدمية يمكن أن تتهور هذه الشراذم وخاصة أنها لم تكن تعى ـ باستثناءات قليلة ـ الأفكار الفلسفية العالية ولا التجارب الروحية ، ونستطيع أن ندرك أيضا مدى ما كانت عليه من تمرد ازاء النظام الاجتماعى والأخلاقى ، بعد أن دخلتها أفكار غير مفهومة عن وحدة الوجود والنزعات الشيعية الغالية[٥٤] •

ولقد كان الشبان من أتراك خراسان يكونون جمهرة المريدين فى طريقة أخرى هى الطريقة الحيدريه التى أسسها الشيخ التركى المشهور قطب الدين حيدر بخراسان فى أواخر القرن الثانى عشر، وكانت هذه الطريقة ، مع اعتمادها على قواعد الطريقه اليسويه تستلهم أيضا الى حد كبير القواعد القلندرية [٥٥] •

وفى القرن الثالث عشر بدأ رجال القلندريه والحيدرية يتدفقون ، مثل رجال اليسوية ، على الأناضول ، وكانت القرى

---

(٥٤) كويريلى زاده أناطوليده اسلاميت ص ٥٠ •

(٥٥) نفس المرجع ص ٥٤ ـ ٥٥ •

والمناطق الآهلة بالعشائر أنسب بطبيعة الحال من المدن لدعاة هذه الطرق المارقة ، ولا شك فى أن باباوات التركمان الذين كانوا العامل الأول على قيام ثورة البابائيين انما هم هم هؤلاء الدراويش الأتراك الشبيهون بالشامانات القدماء والمنسوبون الى هذه الطوائف العلوية الغالية المتداخل بعضها فى بعض .

ومن المعروف أن طرق الهراطقة هذه قد انتشرت فى الشرق الاوسط الاسلامى بعد الغزو المغولى ، ولم تبرأ منها حتى البلاد الشديدة الاستمساك بدينها كامبراطورية المماليك فى مصر والشام. ولكن انتشار هذه الطرق كان ألفت للنظر فى الاناضول الواقع فى قبضة الايلخانيين ، واذا كنا نعلم أن المذهب الاثناعشرى قد صار حينا من الدهر دينا رسميا فى حكم الجايتو ، وان بعض باباوات التركمان قد علا شأنهم فى كنف أمراء المغول فانا نعلم أيضا أن من الدرويش الأتراك طائفه جاءت فى حمايه المغول لتروج لمبادئها فى الأناضول ، ولم يكن نشاط هؤلاء الدراويش مقصورا على القرى والعشائر ، بل تسلل الى قصور السلاجقة والى أمراء الحدود ، ولقد روى الأفلاكى أن السلطان السلجوقى ركن الدين كان يجل شيخا تركمانيا يقال له مرندى على نحو أحزن جلال الدين الرومى وروى الأفلاكى أيضا أن مسعودا حاكم منتشا أحنق عارف جلبى حفيد جلال الدين بتبجيله شيخا تركمانيا آخر .

وعلى أى حال فان الأدلة الصريحة على تشيع خضر بك أحد

أمراء آيدين والتى وردت فى معاهدة عقدها سنة ١٣٤٨ ، ثم الحماية التى أسبغها العثمانيون الأوائل على الدارويش الهراطقة، كل أولئك يدل على ما كان لباباوات التركمان من النفوذ فى بعض الامارات بغرب الأناضول أوائل القرن الرابع عشر .

وربما ألقت المعلومات الجديدة التى أمدنا بها القاضى أحمد نيكدلى عن الحياة الدينية فى تلك الفترة الضوء على المعلومات التى قدمناها :

يقول القاضى أحمد ان أناسا فى بعض قبائل الأناضول كانوا يعتنقون الالحاد والاباحية ، وكانوا كثيرين فى نيكده بوجه خاص . ويتهم القاضى أحمد بعض قبائل البدو بالكفر والزندقة مثل قبائل أولاد (كوك بورى) وأولاد طورغود وكالحطابين (تختاجيلر) والفحامين (كومورجيلر) بمنطقة لولوا ، ويتهم أيضا أتباع شيخ يدعى ابراهيم حاجى كان اباحيا وادعى ـ بالمكر والمخازيق ـ أنه نبى وجمع من حوله حشودا من الجهال فى منطقة نيكده .

ويروى القاضى أحمد أيضا أن بالأناضول طائفة تأتمر بأمر شيخ يدعى طابدق وتطلق على نفسها اسم طابدق أو بعبارة أصح طابدقلو أى أصحاب طابدق وهم يقدمون للضيوف بناتهم وأخواتهم وزوجاتهم .

وهذا النص هو أقدم نص يتضمن هذا الاتهام الذى يوجهه السنيون عادة الى طوائف القزيلباش .

وتوجد فقرات أخرى فى نص القاضى أحمد خاصة بالمنطقه التى يعرفها عن كتب فى وسط الأناضول ولكنها أكثر انطباقا على الأوضاع فى غرب الاناضول •

ومهما يكن فان هذه المعلومات تؤيد تماما النتائج التى توصلنا اليها قبل عثورنا على هذا النص كما أنها تكمل شروحنا المتقدمه •

هذا اذن هو وضع الباباوات التركمان المحاربين الذين انتشروا فى القرى وبين القبائل التركمانية، والذين بدأوا الزحف من جديد نحو الغرب أى نحو الأراضى البيزنطية •

هذا هو وضعهم فى القرن الرابع عشر •

وان كثيرا من الدراويش الملقبين بكلمة «أبدال» مثل «أبدال موسى» و «أبدال مراد» و «قمرال أبدال» ممن كانوا يصاحبون السلاطين العثمانيين الأوائل ، ويحاربون ـ كما فى كتب المناقب ـ بسيوف من خشب ، ويفتحون القلاع ، ويقهرون جحافل الأعداء بحفنة من الرجال ، ويدخلون الناس فى دين الله أفواجا ، هؤلاء الأبدال ينتمون الى الطائفة التى ذكرها عاشق باشا زاده باسم «أبدال الروم» ، ويمكن كما يستنبط من شروحنا السابقة ، أن نعتبر هذه الطائفة صورة متأخرة زمنيا للبابائية الملفقة من مذاهب الهراطقة من الصوفية كاليسوية والقلندرية والحيدرية ، ومن تقاليد التركمان بالاناضول ومن الخرافات المحلية •

والأرجح أن طائفتى الطورلاف والدراويش اللتين تردان فى

الكتب الشرقية والغربية المعاصرة للعثمانيين ليستا فى حقيقة الأمر الا هؤلاء الأبدال .

ولقد كان هؤلاء الأبدال الذين نشأوا تحت نفوذ القلنـدرية بخاصة ثم اندمجوا فى القرن السابع عشر فى الطريقة البكاشـية وما شابهها من الطرق كانوا ــ حتى فى زمانهم الأول ــ يعتبرون الحاج بكتاش وليـا من أوليـائهم ثم أخذوا يميـلون الى الطريقة البكتاشية منذ أواخر القرن الخامس عشر .

ولنقل الآن كلمة عن البكتاشية اتماما لصورة الحياة الدينية فى الأناضول ، وبخاصة فى اماراته الغربية فى القرن الرابع عشر .

بينت من زمان بعيد ، وفى مناسبات مختلفة خطأ النتائج التى توصل اليها المستشرقون فى مسألة البكتاشية مع أنهم خصوها من بين طرق الأناضول القـديم بأكبر نصيب من الدراسـة [٥٦] ، وان اعتراضات الاستاذ H. H. Schaeder فى هـذه المسألة تنم عن فهم خاطىء للأوضاع الدينية للأناضول فى تلك الفترة ، ويمكن الآن وقد عثرت مؤخرا على وثائق جديدة عن البكتاشية أن نرد هذه الاعتراضات بصورة قاطعة[٥٧] .

ان الحـاج بكتاش وهـو أخطـر خلفاء بابا رسـول الله

---

(٥٦) بكتاشيلغك منشألرى ١٩٢٥ .

(٥٧) Orientalische Literaturzeitung, 31 N. 12, 1928 P. 1033 — 1057.

(بابا اسحق) شـيخ البابائيـة الشهير ، أطلق اسـمه على الطريقة البكتاشية التى يمكن اعتبارها امتدادا للبابائية التى بينا من قبل طابعها التلفيقى ، وليس من التاريخ فى شيء ما يقال من أن الحاج بكتاش قد لاقى السلاطين العثمانيين أو أنه لعب دورا فى انشاء الجيش الانكشارى •

ومع أن الطـريقة البكتاشية كانت موجـودة فى القرن الرابع عشر فانها لم تكن أكبر أهمية من سائر الطرق الالحادية الأخرى التى تعتبر بدورها امتدادات للبابائيه • وانما بلغت البكتاشية أهميتها فيما بين القـرنين الرابع عشر والسـادس عشر بعد أن تمثلت زمر الهراطقة الأخرى •

ولكن لما كان تقديس الحاج بكتاش موجودا فى القرن الرابع عشر فى سائر الطرق المنفرعة على البابائية كالأبدال مثلا فقد ظن أن هذه الطرق جميعا بكتاشية ومن هنا أسندت الى البكناشية أهمية فى تأسيس الدولة العثمانية أكبر من أهميتها الحقيقية •

ومهما يكن من شيء فقـد كان المنسوبون الى الحـاج بكتاش موجودين فى غرب الأناضول ابان تأسيس الدولة العثمانية •

ولقد كان لهذه الطـوائف المكونة من الصعاليك البـوهيميين سلطان كبير على الحياة الروحية لتركمان الحدود من الرحل وأهل القرى وكان لها أيضا دور فعال فى ادخال الجماعات المسيحية فى الاسلام ، ولكن دور هؤلاء الهراطقة فى ادخال النصارى فىالاسلام

يرى على صورة أبين وعلى مستوى أرحب حين أدخلوا البلقان فى الاسلام فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

٣ ـ بداية الدولة العثمانية

أرجو أن أكون قد بينت الوضع الاجتماعى فى وسط الأناضول وغربه قبل قيام الدولة العثمانية وأثناء تأسيسها، وأن أكون قد بينت أيضا ، بالخطوط العريضة ، ما كان هناك من القوى المادية والروحية ، وكيف كانت تزاول نشاطها .

ولما كانت الدراسات البيزنطية والصقلبية التى أخذت تتقدم منذ قرن من الزمان قد كشفت عن جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية فى بيزنطة والبلقان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فأظننى فى غنية عن أن أتناول هنا هذه العوامل الخارجية التى هيأت لقيام الدولة العثمانية ويسرته .

ولنعرض الآن باختصار الوقائع الرئيسية التى أحاطت بميلاد الدولة العثمانية وتوسعها حتى نهاية القرن الرابع عشر . دون أن نغفل فى أثناء ذلك العوامل الخارجية المعروفة ولا العوامل الاجتماعية التى حاولنا شرحها حتى الآن ، والتى كان لها أثر فى ذلك الحادث التاريخى ، فاذا فرغنا من هذا فسنحاول ان نستخلص العوامل الأساسية وخاصة الداخلية لقيام الدولة العثمانية .

(أ) الأحداث التاريخية

كان قسم صغير من الغز المعروفين ب (قايى) والذين وفدوا على الأناضول أيام الفتوحات السلجوقية فاسكنوا فى اماكن مختلفة منه ، يعيش فى أواخر القرن الثالث عشر فى شمال غرب الأناضول على الحدود التركيه ـ البيزنطية ، ويمكن الظن بأن هذا القسم كان يحارب جيرانه من البيزنطيين تحت قيادة الأمير التركى القوى المسيطر على بافلاجونيا : أوموريك .

وأخذ عثمان ، وهو رئيس عشيرة ذكى وقوى الارادة يوسع أراضيه بالتدريج مستغلا الفوضى والاهمال المسيطرين على الأراضى البيزنطية بالاناضول ، وكان أول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذى كان ينهدد منطقة نيقية هو المعركة التى خاضها البيزنطيون فى (قوين حصار) Baphaeon بقيادة Muzalon سنة ١٣٠١ أو ـ كما يقول Muralt ـ سنة ١٣٠٢ .

ولما كانت بيزنطة مشغولة بالقلاقل والفتن فى العاصمة وفى البلقان وبالصدامات المستمرة بأعدائها الأقوياء من أمثال أولاد كرميان ، والامارات الساحلية القوية الخاضعة لهم ، فانها لم تستطع ـ لمدة طويلة ـ أن تنحرك ضد عثمان ، وسقطت فى يد العثمانيين أماكن كثيرة كان عليها أن تدافع عن نفسها بقواتها المحلية ، ... ثم سقطت بورسه سنة ١٣٢٦ بعد أن كانت قد فقدت كل ملحقاتها، وفى سنة ١٣٢٩ خشى الامبراطور الشاب Andronic الثالث أن

تسقط نيقية بتقدم العثمانيين فشن الحرب على أورخان ولكنه خسر المعركة فى Pelekanon وهى « مال تيه » الحاليه وفى سنة ١٣٣١ وقعت نيقية فى قبضـــة أورخان وفى سنة ١٣٣٧ أو ســنه ١٣٣٨ استولت الامارة العثمانية على ازميد وحكمت شبه جزيرة «قوجهالى» وابتداء من ذلك الزمان الى حوالى سنة ١٣٦٠ وفق العثمانيون فى الاستيلاء على أراضى امارة قره سى التى كانت قد مزقت اربا . ولقد تحدث ابن بطوطة والعمرى اللذان تناولا أحوال الدولة العثمانيــة فى السنوات الأخيرة من النصف الأول من القرن الرابع عشر عن نشاط أورخان الحربى وعن امتلاكه جيشا قويا .

ولما كانت بيزنطة قد شغلت بكثير من الفتن بعد وفاة أمور بك حاكم ولاية آيدين فقــد عنيت كثيرا بأن تضمن لنفســها مســاعدة أورخان ، وهكذا صار أورخان يتدخل بقوته فى أمور بيزنطة .

وما لبث العثمانيون الذين كانوا قد اجتازوا البحر سنة ١٣٤٥ أن أفادوا من زلزال عنيف دمر أسوار غاليبولى فدخلوها واستوفد أورخان كثيرا من أتراك الأناضول وخاصـــه من ولاية قره سى ، وكذلك بعض العشائر التركمانية فوطنهم هناك .

ولما كان قسم من أهل تراقيــا قد فروا أمام الزحف العثمانى فقد كان الأتراك القادمون من الأناضول يعمرون أماكنهم الخاليــة ، ولم تكن هذه الحركة التى بدأت سنة ١٣٥٩ مثل حركات العثمانيين

ومن سبقهم من امارات الساحل القوية استيلاء مؤقتا ولكنها كانت حركه من حركات التوطين الحقيقى •

وبدأت بيزنطه التى احتفظت بمركزها كعاصمه فرونا طويلة تحس بالخطر العمانى باوسع معانيه ، ولما ولى مراد الأول العرش كان الأتراك قد استقروا نهائيا على ساحل أوروبا متخذين من غاليبولى نقطه متقدمة لعملياتهم الحربية وتقدمت الفتوحات فى ترافيا • وقد استولى قادة أورخان من أولى الخبرة فى غزواتهم سنة ١٣٦٠–١٣٦١ على أهم الاماكن الاستراتيجية فى تراقيا ووفق مراد فى مدة سلطنته التى استمرت حتى سنة ١٣٨٩ فى تحقيق غايته وهى بسط سلطان العثمانيين بصورة ثابتة على البلقان ، ثم استولى العثمانيون الذين نقلوا عاصمتهم الى أدرنه على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وملأوها بجماعات كثيفة من الأتراك المهاجرين ، وما لبثوا بعد ذلك ، فى معركة قصووه أن دكوا بلاد الصرب دكا ، ولما عظمت قوتهم بانتصاراتهم فى البلقان استطاعوا فى عهد مراد أن يوسعوا حدودهم داخل الأناضول فاستولوا على أنقرة ، وما حولها وعلى قسم كبير من أراضى أولاد كرميان وأولاد حميد وقهروا أسرة القرمانيين ، ويمكن أن نقرر فى ثقة أن بايزيد الأول ولى العرش ، وقد صارت الدولة العثمانية امبراطورية راسية القواعد فى الأناضول وفى البلقان ، ثم زاد هذا البناء السياسى سعه وثباتا بحادثين : الأول نصر مؤزر فى نيكبولى والآخر هزيمة منكرة فى أنقرة انتهت بوقوع السلطان فى الأسر•

(ب) عوامل رقى الدولة العثمانية

ونستطيع بعد هذه النظرة العامة على القرن الأول من تأسيس الدولة العثمانيـــــه أن نسرد باختصار العوامل التى حتمت ظهورها وساعدت على نموها :

١ ـ ان وجود العثمانيين على الحدود التركية ـ البيزنطية ، أو ان شئت فقل ان موقعهم الجغرافى كان كفيلا ـ بمفرده ـ بأن يخلق جماعة مستقلة ، وقد استطاعت جماعات أخرى تركيه تقطن الحدود التركية البيزنطية بغرب الأناضـــول أن تكون تشكيلات سياسية بعضها سابق على قيام العثمانيين وأكثر قوة وسنين فيما بعد الظروف الأحسن التى أحاطت بالعثمانيين .

٢ ـ لم تتخذ الامارات التركية الواقعة على حدود العثمانيين موقفـا معاديا من دولة العثمانيين الناشئة حتى لقد بقى عثمان الذى كان فى الغالب تابعـــا أول أمره لأمور بك أمير بافلاجونيـا حر التصرف من بعد وفاة أموربك الى أن دخلت بافلاجونيـــا فى حوزة أولاد جاندار ويغلب على الظن أن تكون بعض القوات الصغيرة بالمنطقة قد التحقت به فى تلك الفترة الحافلة بالقلاقل

ولم تكن بيزنطة لتسىء الظن بأولاد جاندار هؤلاء فقـــد كانوا مشغولين بأمور كثيرة ، منها أنهم كانوا يحاولون الاستيلاء على البلاد الواقعة على ساحل البحر الاســـود ، وربما كانوا

يحاولون أيضا الاســتعداد لمواجهة بعض الهجمات البحرية عليهم •

وكانوا يعملون فى نفس الوقت على المحافظة على مركزهم أمام ولاة المغول بوسط الأناضول ثم بعد ذلك أمام أبناء أرتناء وكل الهيئات السياسية التركية ذات الحدود المشتركة معهم •

وأما عن دولة الكرميانيين التى كانت من المنعة بحيث تواجه بتوفيق كل القوى الكبيرة فى وسط الاناضول وجنوبه فقـد كانت مشغولة بالفتوحات فى أراضى البيزنطيين ، وكانت هذه الدولة التى تحولت الى احدى دول الاناضول ، بعد أن اشتد ساعد الامارات الساحلية التى أقامها من قبل قوادها ، تحاول المحافظة على مركزها ازاء أولاد حميد وازاء القرمانيين عـلى وجه الخصوص وذلك بعد أن استولت على قره حصار وعلى البلاد التابعة لأولاد اينانج •

وأما عن دويلات منتشا وآيدين وصاروخان وقره سى فان فتوحاتها وغاياتها ـ وخاصة فى أول الأمر ـ لم تكن تتعارض أبدا مع غايات العثمانيين ، ولم ينجح البيزنطيون فى تحريضها على العثمانيين لأن أعداء آخرين كانوا فى مواجهتهم ، وعـلى هذا النحو ، كان الوضع فى الاناضول فى بداية عهدالعثمانيين يسمح لهم بحرية الحركة •

٣ ـ وأما العوامل التى ساعدت العثمانيين على أن يجتازوا البحر

الى أوربا وعلى تثبيت أقدامهم فى البلقان بعد أن استولوا على ما جاورهم من الأراضى البيزنطية فى آسيا فانى لا أتحدث عنها لأن علماء العصور الوسطى الأوربية ولاسيما المتخصصين فى تاريخ الصقالبة وبيزنطة قد وضحوا هذه العوامل تماما .

٤ ـ ولقد وجد العثمانيون الأوائل كما وجد غيرهم من بكوات الحدود الغربية كل ما يحتاجون اليه من الامكانيات المادية والمعنوية لفتح الأراضى البيزنطية فى الاناضول ولتثبيت أقدامهم فيها ، وجدوا هذه الامكانيات فى العناصر التركية البدوية والقروية والحضرية التى كانت تتدفق منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر على غرب الاناضول .

وبينما كانت الامارات الساحلية آخذة فى التضعضع نتيجة لمعاركها التى لا تكاد تنقطع مع البيزنطيين ومع القوى البحرية اللاتينية وبينما كانت هذه الامارات عاجزة عن أن تحقق بهذه الحروب نتائج طويلة البقاء ،كان العثمانيون لايفتأون يوسعون حدودهم بخطى بطيئة ولكن حاسمة ، ولم يكونوا يكفون عن مضاعفة قوتهم ، ولقد بلغ من ذلك أن العالم المسيحى لم يحفل بوجودهم الا بعد أن استولوا على غاليبولى ، ذلك ، على حين هاجت غزوات أمور بك الباهرة وغير الحاسمة فى نفس الوقت العالم المسيحى فى البحر الابيض ، وعلى رأسه البابا ، وأدت الى الاستيلاء على أزمير بمجرد وفاة أمور بك .

ويجب أن ندخل في اعتبارنا ونحن ندرس قيام دولة العثمانيين فارقا مميزا بينهم وبين امارات الحدود الاخرى وذلك هو موقعهم الجغرافي ، فلئن كانت العوامل الاخرى لظهور الدولة مشتركة بينهم وبين سائر امارات الحدود فلم يكن للعثمانيين ـ بفضل موقعهم الجغرافي ـ الا عدو واحد هو بيزنطة .

٥ ـ اذا استثنينا العثمانيين ، فقد كانت الدولة فيالامارات الساحلية الاخرى ملكا عاما لكل أفراد الأسرة ، يحكم كل أمير منطقته حكما مستقلا ، ولئن كان لأكبر أفراد العائلة ـ من الناحية النظرية ـ حق الرياسة علىالآخرين فانه لم يكن يزاولذلك الحق الا ان كان أقواهم فعلا ، فبينما كان محمد بن آيدين يحكم بيركي ومعه ولده الصغير كان أبناؤه الآخرون حكاما على مناطق أخرى وكان لكل منهم جيشه الخاص .

ولقد تحرك أمور بك لغزو غاليبولي في أول مرةرغم ارادة أبيه .

ولما مات أبوه ولي العرش مع أن له أخا أكبر وذلكباصرار أخوته وعمه خضر بك .

ولقد كانت هذه الأوضاع تسبب كثيرا من الخصومات في امارات الساحل وتضعفها ، على حين كانت السلطة كلها عند العثمانيين في قبضة شخص واحد . ويظهر أن مراد الأول

فَعَلَ فِعْل ابنه بايزيد فاستأصل اخوته جميعا لكيلا يدع مجالا للخصومه على الحكم ولا دعيا يطالب بالعرش ، واذا كانت الدولة العثمانية لم تزلزل زلزالا داخليا شديدا في القرن الرابع عشر فقد كان عدم انقسام السلطة من أهم العوامل على ذلك .

ولكن هل كان عدم انقسام السيادة على هذا النحو نتيجة تطور تشريعى أم أنه تطبيق لتجارب الحكام الشخصية ؟

لا يمكن البت فى هذه المسألة ، ولكن يجب أن نسجل أنه متفق مع المبادىء العامه للشريعة الاسلامية .

٦ ـ كان استيلاء العثمانيين بسهولة على جزء كبير من أراضى قره سى ، ثم اجتيازهم البحر الى أوروبا ، واقامتهم فى غاليبولى عاملا على تقويه بنيان الدوله ، وذلك أن كثيرا من العناصر البدوية وفقراء القرى جاءوا ليتوطنوا فى الاراضى الخصبة الخاليه ، وهاجر كذلك كثير من الفرسان من امارات وسط الاناضول ، ومن امارات السواحل كامارات قره سى وصاروخان وآيدين ومنتشا ، طمعا فى الحصول على الاقطاعيات الغنية بالروملى .

ويمكن الظن بأن كثيرا من الترك قد جاءوا الى هذه المواطن باختيارهم بالاضافة الى من هجرتهم الدولة . ولقد كان لكثير من سكان الاناضول معرفة قديمة بمناطق الروملى الجميلة الخصبة ذهبوا اليها من قبل تحت قيادة بكواتهم ، وهكذا كان

العثمانيون يزيدون قوتهم باستمرار على حساب جيرانهم فى الأناضول وقد استمر هذا النقل الجماعى للاتراك من الاناضول للروملى حتى فى القرن الخامس عشر •

٧ ـ تمت غزوات العثمانيين للبلقان بسهولة وبغير خسائر كبيرة فى الأرواح وكان العثمانيون يأخذون من الاراضى المفتوحه عنوة كثيرا من الغنائم والأسرى ، وكان للدولة الخمس من هؤلاء الأسرى الذين كانوا ـ فى جملتهم ـ من صغار السن، وكانت حصة الحكومة تنقل الى الاناضول فاذا ربوا وتعلموا التركية ودرسوا الاسلام سلكوا فى الجيش •

وكان كبار الاقطاعيين وصغارهم يتصرفون فى نصيبهم من الأسرى على هذا النحو : اما أن يبيعوهم واما آن يربوهم ثم يحتفظوا بهم فى خدمتهم كما كان متبعا فى العالم الاسلامى، ونحن نعلم أنه كان فى الأناضول فى القرن الخامس عشر قرى موقوفة هى وسكانها النصارى على بعض الأغراض ، ومع أننا لا نستطيع أن نقول شيئا فى هذا الأمر فاننا نستطيع أن نظن أن هذه القرى كانت آهلة بهذا النوع من الأسرى وان كان الأمر كذلك فان معناه أن قسما ضئيلا من الأسرى ربما كان الأصغر سنا كان يدخل فى الاسلام ، وأن الباقى كانوا يستخدمون للزراعة فى أراضى كبار الملاك •

وأما المناطق التى كانت تفتح صلحا فقد كان أهلها يبقون

فى أماكنهم لقاء جزية يدفعونها ، وكانت جماعات الدراويش الصعاليك التى تناولناها من قبل لا تكف عن الدعوة للاسلام بين النصارى ، ونستطيع أن نظن أن الاسلام قد انتشر بسهوله فى جماعات الهراطقة المسيحيين من أعداء الكنيسة الارثوذكسية مثل جماعة الـ «Bogomil» وما شابهها ، وكان من الطبيعى أن يهتدى للاسلام قسم من الارستقراطية لاسباب سيكلوجية واقتصادية ولكن مثل هذه الحركة لم تكن واسعة فى القرن الرابع عشر ، وان كان وقوعها محتملا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما حدث فى البوسنه وألبانيا •

كل أولئك دون أى تدخل أو تضييق من الدولة فقد كانت الدولة تحافظ فى كل وقت على الحرية الدينية وترعى امتيازات الفئات الروحية وعادات الطوائف وتقاليدها •

٨ ـ كان الجيش الانكشارى المكون من الشبان الصغار الذين تحدثنا عنهم من قبل قوة من المشاة فى خدمة الحاكم دائما ، ولكن أكبر قوات الدولة العسكرية هى قوة الفرسان التى يكونها السباهيه من أصحاب الاقطاعيات ولم يكن للانكشارية فى القرن الرابع عشر على الخصوص أهمية لافتة ، ولم ينظم قانون الدوشيرمة الا فى القرن الخامس عشر على عهد مراد الثانى •

٩ ـ ولقد احتفظ العثمانيون بمبدأ كان متبعا أيام السلاجقة يقضى بأن تقسم الأراضى المفتوحة الى اقطاعيات مختلفة القيمة تعطى

أقلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية وتعطى أحسنها بصفة (زعامة) أو (خاص) للقـادة الأكبر مركـزا ، بشرط أن يسلحوا عددا من الجند يتناسب مع اقطاعياتهم •

ولما كانت أراضى السباهية وراثيـة فقـد ولدت نوعا من الارستقراطية الزراعية راسية الأساس وكانت هذه الطبقة من الناس التى تتوقف مصالحها وايراداتها على الرواج الاقتصادى فى القرى الممنوحة لها ، كانت تمثل الحكومة ـ على نحو ما ـ فى مناطقها ، وكان لها دور كبير فى تقدم الدولة العثمانية فى القرن الخامس عشر وفى رخائها •

وهكذا يتبين أن هـذا النظام كان مقتبسا ـ كما قلت من قبل ـ من دولة السلاجقة الكبار لا من بيزنطه[٥٨] •

---

(٥٨) بيزانس مؤسسة لرينك عنمانلى مؤسسة لرى أوزرينه تأثيرى ، تورك حقوق واقتصاد تاريخى مجموعة سى جلـد (١) ، ١٩٣١ ص ١٦٥ ـ ٣١٣ وقد نشر هذا الموضوع ملخصا بالفرنسية تحت عنوان :

Les Institutions Byzantines ont — elles joué un rôle dans la farmation des Institutions ottomanes ? VII «Congrés International des sciences Historiques.

وقد قرأ M. Guilland هذه الخلاصة قراءة عاجلة فكتب يقول اننى حللت مسألة التأثير البيزنطى حلا سلبيا ، ويقرر أيضا اننى لم ألتزم الحياد ولا الهدوء اللائقين بالمؤرخين •

(Annales d'Histoire Economique et Sociale Juillet 1934, P. 426 : Institutions Byzantines, Institutions musnlamans ?).

ولقد أثبت فى بحثى الأصلى النتائج الايجابية الخاصـة =

١٠- كانت الاجهزة المدنية والعسكرية والقضائية فى الدولة العثمانية امتدادا فى جوهرها لمثيلاتها فى دولة السلاجقة تأثرت جزئيا بأجهزة الايلخانيين وفليــــلا بأجهزة المماليك المصرية ، ولن أتناول هنا هذه المسألة التى سبق أن تناولتها •

وكانت الدولة العثمانية فى القرن الرابع عشر تجد من بين الترك كل العناصر التى تحتاجها لهذه الأجهزة الا فى حالات نادرة ، وكان رجالات الدولة ـ باستثناء أو باستثناءين (كأسرة ميخال) ـ ينتمون جميعا الى الارستقراطية التركية ، وكانت هذه الارستقراطية التى شاركت العثمانيين فى تأسيس الدولة، والتى كان شأنها يعظم باطراد مع علو نجم الأسرة العثمانية ، كانت لا تزال تقبض على كل أزمة الادارة فى القرن الرابع عشر ، وخرج من بينهم قادة كبار ، ومديرون مهرة، ومنظمون (تشكيلاتجية) مرموقون ، وديبلوماسيون دهاة •

١١- والى جانب عوامل النجاح هذه يجب ألا نغفل مزايا الحكام العثمانيين الأوائل : عثمان وأورخان ثم مراد بوجه خاص •

= بالتأثير البيزنطى على النظم الاسلامية وخاصة فى العصرين الاموى والعباسى وأما فيما يتعلق بالعثمانيين فقد قلت أن تأثير البيزنطيين فيهم كان سابقا لقيام الدولة العثمانية وليس لاحقا •

وأما المعادلة : (النظم الاسلامية : = النظم العثمانية) فانى ألقى مسئوليتها كاملة على M. Gnilvaud .

ان فى الحتمية « التاريخية » الغامضة اغفالا للأدوار الهامة الخلاقة التى تقوم بها الشخصيات العظيمة ونسيانا لعامل هام من عوامل الحياة الاجتماعية والتكامل التاريخى .

ونستطيع بعد هذه الايضاحات أن نشرح قيام الدولة العثمانية، والتطور التاريخى للتركية (مصدر كالعروبة) الاناضولية على هذا النحو :

ليست هـــذه الدولة كيانا مستقلا ، ولا هى تشكيل اثنوغرافى أو سياسى مستقل عن الدولة السلجوقية المنقرضة ، وعن الامارات التى خلفتها ، وانما هى بالعكس تركيب من العناصر التركية تمخض عنه التطور السياسى والاجتماعى فى الاناضول فى القرنين الثـــالث عشر والرابع عشر ، وهذه العناصر التركيه هى هى التى أسست من قبل دولة السلاجقة ودولة الدانشمنديين وامارات الاناضول المختلفة .

(تم بحمد الله)

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والأنهار والجبال

فهرس العشائر والطوائف والدول والاصطلاحات

فهرس الموضوعات

الموضـــوع **رقم الصفحة**

الموضوع	رقم الصفحة

القسم الثانى

القسم الثالث

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
١٩٦٧

الثمن ٤١ ص